

نولة درويش
شيرين أبو النجا
نفيسة الصباغ
أمل إسماعيل
هنده الشناوي

هالة كمال
منى إبراهيم
ريم بن رجب
علياء طلعت
مي عامر

م ع ض لة الأمومة

تقديم
هند سالم



T t.me/tea_sugar

معضلة الأمومة
تقديم، هند سالم
النوع، علم اجتماع
الطبعة الأولى: 2024
رقم الإيداع: 2024/3995
الترقيم الدولي: 1-48-6950-977-978
غلاف، زبير فارس
تحرير، أمير زكي



9 ش 256 - المعادي - القاهرة
ت: 01095072784
الحقوق محفوظة لدار هن
2024

مقدمة

تعن وزارة التضامن الاجتماعي كل عام عن الشروط الواجب توافرها في الأم المثالية، وذلك ضمن المسابقة التي تُنظّمها لتكريم الأمهات "المثاليات"، تأتي شروط هذا العام (التي لا تختلف عن كل عام تقريباً) كالآتي:

• "معياري عطاء الأم وإعلاء القيم الإنسانية وقدرتها على الحفاظ على تماسك الأسرة،

• إيجاد التوازن بين المسؤوليات المتعددة للأم ورعاية الأبناء والتزام الأسرة بمنظومة القيم والقدرة على مواجهة الصعاب،

• ألا يقل السن عن 50 سنة ولها قصة عطاء،

• ألا يزيد عدد الأبناء عن 3 أبناء ويُستثنى من هذا الشرط محافظات الحدود بحد أقصى 5 أبناء.

• أن يكون جميع الأبناء حاصلين على مؤهل عالٍ ويُستثنى الابن المعاق ذهنياً غير القابل للتعلم.

• تفضيل الأم الأعلى درجة في السلم التعليمي، والأم التي استطاعت أن تتعلم مع أبنائها وحصلت على مؤهل،

• الأم العاملة أو التي لديها زوج مريض أو الأرملة والمطلقة".

ولا يقتصر هذا التكريم على وزارة التضامن الاجتماعي، لكن تقوم كل المؤسسات المجتمعية الرسمية منها وغير الرسمية بعقد مثل هذه المسابقات، فالمصالح الحكومية والوزارات والشركات والمحافظات والقرى تتسابق للبحث عن الأم المثالية لتكريمها ضمن "احتفالات" عيد الأم.

على مستوى آخر تستعد المحال التجارية لعرض سلعتها
لتهنئة الأم في عيدها فتنال العروض على الأواني والأطباق
والأدوات المنزلية والكهربائية، وتظهر صورة أم شابة بجانب
السلعة المُعلن عنها وأطفالها في الخلفية محتفلين بأهم "الكول".

وسط هذا الجو الاحتفالي الذي يعكّر كل عام، تعيش
النساء/ الأمهات معاناتهن اليومية والجري وراء تحقيق صورة
مثالية لأموتهن لا تتحقق. فالأم "المثالية" كما تراها مؤسسات
المجتمع هي التي قدّمت شبابها لرعاية أطفالها دون الالتفات
إلى تحقيق طموح شخصي أو تحقيق رغبة، بالعمل، بالزواج،
بالتعليم، بالسفر، إلخ. باختصار الأم المثالية هي الأم التي تتجرع
المعاناة حتى آخرها، إنها الرمز الذي يجب أن ينظر إليه بإجلال
وشفقة. وحتى تكوني أمًا مثالية عليك اتباع هذه الخطوات
الأربع:

1. الشعور بالذنب تجاه أبنائك باعتبارك أنتِ فقط المسئولة
عنهم!
2. العطاء والإيثار والتضحية، فالأمومة لا تكتمل إلا بالمزيد
من الألم!
3. الحفاظ على أسرته لأن الأسرة "الصالحة" هي عماد أمة
قوية!
4. وأخيرًا، من الأفضل لك أن تتخلّي عن هويتك السابقة
وتتماهي مع هويتك كأم، فبناء الأمة يقع على عاتقك الآن،
كوني على قدر المسؤولية!

محاولات لكسر الإطار

إذا كان هذا هو الإطار العام الذي يجب علينا بوصفنا نساءً
أن نأخذ مكاننا داخله، فهل من سبيل للخروج وكسر الإطار؟

أم أن الأمومة هي الجرح الذي علينا تعمله بصمت وقدرة على الاستمرار؟ ما ثمن الخروج إذا كان ثمة خروج؟

بكل هذه الأسئلة بدأنا في "هن" تجربة "أمومة" الفكرة التي من خلالها حاولنا تفكيك مفهوم الأمومة التقليدي والدور النمطي ونقد الواقع الذي يهيمن على النساء/ الأمهات بكل أشكال العنف المرثية والخفية. وإعطاء فرصة لنا بوصفنا نساء أن نسرّد حكاياتنا وخبراتنا الشخصية حول الأمومة دون خوف من إصدار الأحكام أو الوصم أو التسفيه منها، ولنعلم أيضاً أن التجارب الشخصية للنساء ليست ثرثرة فارغة إنما حكايات تستحق أن تُروى، فهي تكشف علاقات القوى وأشكال السلطة التي تُديم دوائر قهر النساء باختلاف موقعها الجغرافي والديني والطبقي والعِرقي.

كأ نعلن أننا سنواجه عقبات أثناء طرح هذا الدور "المقدس" للمساءلة والنقد، إلا أن النساء اللاتي شاركننا الرحلة كنّ يتحلين بالشجاعة، فقد سردن حكاياتهن بكل انفتاح وقدرة على التحليل وربط تجاربهن الشخصية بالسياق العام ليعلن بدون حاجة لأي تمظهر أن الشخصي سياسي، وأن تجاربنا الشخصية بالرغم من خصوصيتها إلا أنها تتشكّل وفقاً للمنظومة الاجتماعية والسياسية والثقافية السائدة. فعبر تسعة شهور استطعنا أن نناقش نصوصاً ونشاهد أفلاماً ونكتب قصصاً تُعبّر عن خبراتنا، وذلك من خلال الورش الأونلاين التي كُنّا نعقدّها كل شهر والتي أتاحت فرصاً لمشاركة تجارب صديقاتنا من سوريا والسودان وإريتريا واليمن والعراق وتونس ولبنان. كانت الورش فرصة كبيرة لمناقشة السياقات المختلفة التي يتشكّل عبرها "دور الأمومة"، وإمكانات التغيير في كل سياق. لم تقتصر التجربة فقط على المناقشات والكتابة والبوح بل امتدّت للعناية بالجسد، وذلك

من خلال ورشة "الرقص العلاجي" الذي كانت تتشابك
وبملاقى فيه مشاعرنا وخبرتنا وفي كثير من الأحيان أرواحنا
أيضاً. ومن خلال النقاشات المستمرة عبر عقد حلقات نقاشية،
وتسجيلات البودكاست التي تحوي قصصنا الشخصية وأيضاً
رؤيتنا للتغيير.

مُعْضِلَةُ الأُمُومَةِ

حينما نكتب عن الأمومة لا يُمكن أن ننسى أمهات غزة؛
فقد كُتِبَ عدد من المقالات الموجودة بالكتاب في أثناء هجوم
الاحتلال الإسرائيلي على غزة واستهدافه الأطفال، علاوةً على
الشكل الممنهج لإبادة أهل غزة. كانت الكتابة صعبة على عديد
من الكاتبات، فأمام الموت والإبادة تفقد كل الأشياء معناها
ومنها الكتابة، كذلك كيف يمكن مُساءلة دور الأمومة وتغييره
في واقع تفقد فيه الأمهات أطفالهن أمام أعينهن، في الحقيقة
كانت هذه مُعضلة من نوع مختلف، مُعضلة تعطل إنتاج رؤى
بديلة لعالم يكشف لنا عن وجهه الأكثر قتامة وقبحاً. بالرغم
من هذا وجدنا أننا لا نملك إلا أن ننتهي من إعداد الكتاب،
والتعبير عن غضبنا ليس بالصمت وإنما بالكتابة. في هذا
الكتاب، تناول نسويات من خلفيات وأعمار وسياقات مختلفة
قضية الأمومة عبر سياقات ومداخل نظرية متنوعة، يمتزج فيها
الشخصي بالعام، والتاريخي بالواقع المعيش.

كلمة أخيرة

في البداية والختام أودُّ أن أشكر رفيفات الرحلة؛ ويسا، سارة
طوبار، نرمين مجدي، اللاتي بذلن كلَّ الجهدِ والحسِّ والمودةِ
لتحقيق الفكرة، وكلُّ الأمهاتِ اللاتي شاركن معنا تجاربهن
وخبراتهم ووثقن بنا وفتحن لنا عقولهن وقلوبهن وشاركننا الحلم

بتغيير واقعنا وإنتاج واقع مُغاير، وأخيراً أودُّ أن أشكر الكاتبات
المساهمات واللاتي كتبن في ظلِّ وضع كان من الصعب الكتابة
فيه.

هند سالم

T

t.me/tea_sugar

الأمومة في الثقافة العربية: سؤال أم شبح؟

شيرين أبو النجا

يختلف موقع مفهوم ومصطلح الأمومة في الثقافة العربية عن نظيره في الثقافة الغربية التي حولت الأمومة إلى مجال بحثي يرتبط بالواقع وبالتجربة المعيشة وكشفت عن الثغرات التي يتم من خلالها إقصاء النساء وتحجيم ذاتيتهن وقصرها على أدوار محددة. ما كان يُمكن أن يحدث هذا بدون تطور النظرية النسوية في مجالات العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية التي لم تهمل بدورها الجوانب الاقتصادية والسياسية. يبدو لي أن جراءة النظرية النسوية في الغرب (1) وتطورها وقدرتها على إرساء معطياتها في البحث يشكل جوهر الاختلاف الذي أدى إلى عدم البحث في مفهوم الأمومة في الثقافة العربية. (2)

لا أهداف إلى الخوض في أسباب عدم تطور النظرية النسوية، أو ضعف الإنتاج المعرفي في هذا المجال، فهذا أمر يحتاج حياة أخرى، لكن يُمكن ذكر بعض الأسباب العامة التي قد تبدو سبباً ونتيجة في آن، والتي تنسحب على كل أشكال الإنتاج المعرفي ولا تقتصر على النظرية النسوية. بداية، لا يمكن تجاهل الاستعمار الذي ظل قائماً في العالم العربي حتى منتصف القرن العشرين. ومن المعروف في الأدبيات أن النساء في ظل الاستعمار هن مؤشر الحفاظ على الهوية من أي اختراق أو تأثير قد تمارسه ثقافة المُحتل. يزداد الأمر صعوبة في مرحلة ما بعد الاستعمار، حيث يتم إعلان هوية الاستقلال أيضاً عبر النساء، وبنفس القدر يتم إهمال القضايا النسوية باعتبارها ليست أولوية في بناء مجتمع جديد. أما السبب الثاني فهو مرتبط بالأول ونتيجة له. بفعل موجات

الاستعمار المتعاقبة على العالم العربي، كان الفكر الديني هو سلاح المقاومة والمواجهة الأول، لم يكن من السهل إطلاقاً إفساح أي مكان لأشكال معرفية أخرى، فقد تحول الموروث الديني من سلاح مقاومة وارتكاز إلى أحد ثوابت الهوية. كان لا بد من انتظار عصر النهضة الذي قام على إشكالية التقليد والحداثة، وقدم إنتاجاً معرفياً لم يهمل القضايا النسوية، أو بالأحرى النسائية. لكن الأمر لم يتطور أكثر من ذلك، فقد كان هم مفكري النهضة هو النهوض بالمجتمع، فلم يتجاوز الأمر محاولة شرعية الحقوق الأساسية. أما السبب الثالث فهو نتيجة طبيعية للسببين السابقين، فقد تم وصم الفكر النسوي كفكر مستورد من الغرب، لا أصل له في المجتمع، ويهدف إلى هدم القيم والمبادئ وبالطبع مفهوم العائلة. ولغياب الاطلاع على أدبيات ونظريات الفكر النسوي كان من السهل إصاق العديد من التهم الكارثية به. في عقد التسعينيات من القرن الماضي طُرحت قضية من منظور نسوي تبجيء عبارة "الإسلام كرم المرأة" كحائط صد عنيف، وعليه التهمة الكامنة بين السطور واضحة. بالرغم من أن المجتمعات التي حصلت على استقلالها أبدت سعياً متحمساً نحو الأخذ بكل ما يأتي من "الغرب" من معارف وتكنولوجيا وفنون وأسلحة، لم يتم إفساح أية مساحة لازدهار الفكر النسوي الذي "يهدم القيم الإسلامية". أدى كل ذلك إلى تبني نبرة اعتدالية من قبل النسويات خاصة أن الأنظمة الحاكمة كانت (وما زالت؟) ما تقايس المعارضة على أرضية حقوق النساء.

لكل هذه الأسباب لم يكن من الوارد أن يحدث أي نقاش حول مسألة الأمومة، فالأرضية المعرفية ليست متوفرة. كما أن الخطابات التي تُشكل مفهوم الأمومة حاضرة بقوة وتُشكل

العصب الرئيسي في الرؤية المجتمعية والفكرية لأهق المفكرين. فالخطاب الديني (الإسلامي والمسيحي) يعليان من شأن الأم عبر آيات صريحة وواضحة بما يمنح الأم قدسية وهالة تجعل مناقشة الأمومة بمنزلة خروج عن الملة المقبولة وتجاوز لخطوط حمراء.

في كتابه المعروف المرأة في خطاب الأزمة (3) تناول المفكر الراحل نصر حامد أبو زيد نقاط مفصلية في التاريخ الحديث والمعاصر التي جعلت النساء في قلب الأزمة، فتحول الخطاب الخاص بالمرأة إلى خطاب مأزوم يتظاهر أنه خطاب صحة ونهضة. في تحليله لتجليات هذا الخطاب في التاريخ الحديث أشار أبو زيد بشكل خاص إلى نكسة 1967 ومظاهرات 1977 التي أطلق عليها أنور السادات اسم "انقفاضة الحرامية". يخلص أبو زيد أن موجة التراجع عن كل المنجزات قد بدأ عشية هزيمة يونيو 1967 وظلت في تصاعد، حتى أن خطاب "النهضة" تحول إلى خطاب "أزمة". بدأ خطاب الأزمة حول حقوق المرأة يظهر بشكل مؤسسي بالرغم من حرصه -أي الخطاب- على تأكيد "أن مدخله لمناقشة قضايا المرأة هو مدخل الحرص على كرامتها، وعلى حمايتها مما يتعرض له من إهدار لآدميتها إذا خرجت للعمل واختلطت بالرجال في وسائل المواصلات العامة المزدهمة" (أبو زيد، 68). يورد أبو زيد مثلاً صارخاً على بذور هذا الخطاب، ففي عام 1977 (غالباً) طرح أحد نواب مجلس الشعب -وهو الفريق سعد الشريف (1)- لأول مرة فكرة بقاء المرأة العاملة في المنزل على أن تُمنح نصف الراتب، ويؤكد أن هذا الاقتراح مبني على ملاحظته لمدى معاناة النساء من محاولة التوفيق بين البيت والعمل، وهو ما يؤدي إلى توترها بشكل يعكس

على الأسرة بأكملها، ويستطرد: "وفي رأيي أن رسالة المرأة الأولى هي الأمومة، والأمومة معناها واسع، ولا يعني ذلك مجرد الإنجاب، إنها التربية الشاملة التي تخلق المواطن السوي الصالح، في رأيي أن الظروف التي تعيشها المرأة لا تمكنها من إتمام رسالتها على الوجه المطلوب" (أبو زيد، 68). (5) وقد هلل كثيرون لهذا الاقتراح حتى أن عبد المنعم نمر (6) عبر عن دهشته قائلاً: "كنت أظن أنه لن توجد امرأة ترفع صوتها بالاحتجاج على هذا الرأي الذي سيوفر لها الراحة، ويحفظ عليها حياة في رحلة الذهاب إلى عملها والعودة منه وسط هذا الزحام..." (69). (7) الالفت للنظر في كل هذا الجدل هو تطابق المنطقين -السياسي والديني- فيما يتعلق بدور المرأة وهو الأمومة. ويؤكد أبو زيد أن "مناقشة أهمية هذا الدور خارج إطار مسؤولية المجتمع ككل -وخاصة في المجتمعات الحديثة التي تعتمد على بناء مؤسسي يتدخل كثيراً في عملية التنشئة والتربية- يعدُّ إهداراً لدور تلك المؤسسات، وتعامياً عن أثرها الخطير الذي يكاد يكون أعمق من دور الأسرة والأم" (أبو زيد، 70).

لا يعوانى الخطاب الاعلامي الحديث والمعاصر عن إضفاء القدسية على الأم، وهي دائماً أم واحدة ثابتة، والعديدية صفة منفية عنها، وهو ما يجعل "الأم" صفة مجردة، قائمة بذاتها وفي ذاتها، غير مرتبطة بطبقة أو مكان أو سياق سياسي، هي دائماً: الحنون، المعطاءة، الصبورة، المضحية، المتفانية، الراضية، الطيبة، الكريمة، المتسامحة، المتحقة في سعادة الأبناء، المتوارية من أجل الأبناء، باختصار هي الأم الغائبة من أجل حضور الأبناء. الأم الحقيقية من وجهة النظر السائدة هي التي تسم بالغياب الكامل ولا تهمل حضورها إلا في تطور ولجاح الأبناء،

وفي حالة فشلهم (بمعايير المجتمع أيضاً) عليها أن تتحمل اللوم. يظهر ذلك في كل المقالات الصحفية والملفات الخاصة التي تظهر دائماً في عيد الأم وليس على القارئ سوى البحث على محرك جوجل ليقرأ كثيراً من هذه الكتابات النمطية التي تُشيد بدور الأم في تحقيق الابن أو الابنة لنجاح ما في الحياة، ومن هنا تكون الأم قد نجحت هي الأخرى في تحقيق واجبها. وغالباً ما تكون سردية الأبناء مُغلّفة بشجن وحنين ورومانسية ومثالية فائضة، حتى أن قصيدة محمود درويش "أحن إلى خبز أمي" تحولت إلى ما يشبه الكيتش.

يسود أيضاً نموذج أم الشهيد، والذي يركز بالطبع على تاريخ إسلامي يموج بأمهات الشهداء في سبيل إعلاء كلمة الإسلام ثم انتقل بكل زحمه ودلالاته الدينية إلى الأدبيات الفلسطينية، وحلت الشهادة في سبيل الأرض محل الشهادة في سبيل الدين. وكجزء من المقاومة سادت صورة الأم التي تطلق الزغاريد عند سماع خبر استشهاد الابن، حتى أن حسن عبد الله - الشاعر اللبناني الراحل - كتب قصيدة "أجمل الأمهات" التي غناها مارسيل خليفة، وجاء فيها: "أجمل الأمهات التي انتظرت ابنها/ أجمل الأمهات التي انتظرتهُ/ وعاد/ عادَ مستشهداً/ فبكت دمعتين ووردة/ ولم تنزوي في ثياب الحداد". إشكالية هذا النموذج أنه يُحوّل الأم الفلسطينية إلى رمز وينزع عنها البعد الإنساني الذي يقطر ألماً على أبنائها الشهداء أو الأسرى. يموج الأدب العربي - شعراً وثرّاً - بنماذج أم الشهيد، لكن على حد علمي لم يتم تناول الأمر من خلال دراسة نقدية أو نفسية، فالنموذج في حد ذاته لديه من القدسية ما يمنع طرح أي تساؤلات بحثية عنه.

يرتبط بنموذج الشهادة مسألة تأنيث الوطن، والتي أوجزها

أحمد فؤاد نجم في قصيدته الشهيرة "مصر يا أمة يا بهية يا أم
طرحة وجلابية/ الزمن شاب وانتي شابة هو رايح وانتي جاية/
جايه فوق الصعب ماشية فات عليكي ليل ومية". يتحوّل الوطن
إلى امرأة أو صبية أو أم، وهو ما يظهر في تمثال "نهضة مصر"
لمحمود مختار، وقد يكون الوطن امرأة مستباحة مثل حميدة في
رواية زقاق المدق لنجيب محفوظ. بشكل عام، يترسخ مفهوم
الوطن بوصفه الأم، فهناك كل أشكال الفنون التي تروج لهذا
الأمر مثل الأغنية الشهيرة "مصر هي أمي" تأليف عبد الوهاب
محمد وألحان كمال الطويل، ناهيك عن كل الاستعارات
التي تُحوّل الوطن واللغة إلى أم. وكنتيجة طبيعية لكل هذه
الاستعارات والمجازات يصبح شرف النساء مساوياً لشرف
الوطن. يمكننا فهم توظيف اغتصاب النساء في زمن الحروب
كوسيلة لكسر الطرف الآخر.

يُمكن القول إن الثقافة العربية لم تسمح بتحويل الأمومة إلى
سؤال بحثي مطلقاً، بل حرصت على تسييجها داخل إطار يختلط
فيه الديني والمُحرّم والمُقدّس والوطني ليبقى الأمر على ما هو
عليه، الثقافة العربية تمي جيداً خطورة السؤال. وبالرغم من
ذلك لا يكاد يخلو كتاب من الإتيان على ذكر الأم، فهي شخصية
رئيسية في السرد الروائي والأفلام السينمائية والمسلسلات
التليفزيونية، وهي حاضرة بقوة في السير الذاتية، والتواريخ
الشخصية، وهي ذات متعددة في أروقة المحاكم الجنائية ومحكمة
الأسرة، وهي الأصل في قانون الأحوال الشخصية، والإرث،
وهي التي تربط العائلة بالمنزل وهي المُحرّض الأول على الختان،
وهي الشخصية الأهم من العروس في حفل الزفاف، وهي
التي تردد الدعوات دائماً في صلاة الفجر لكل أبنائها. بكل هذا
الحضور القوي تبقى الأمومة من المسلمات التي لا تستفز العقل

البحثي ولا تدفع إلى السؤال أو التساؤل. وهو ما جعل صدور كتاب إيمان مرسال كيف تلتئم: عن الأمومة وأشباحها بمنزلة الحجر الذي حرك الأفكار الساكنة المستكينة لفكرة تابعة عن الأمومة.

الطريق إلى الالتئام

بالرغم من أن الفصل الأول من كتاب "كيف تلتئم" قد نُشر في العدد الثاني من مجلة مخزن (8) في سبتمبر 2015، إلا أن موضوع الأمومة تحول إلى كرة تلج (في مصر والعالم العربي) عندما نُشر الكتاب باللغة العربية أولاً وأُطلق في مسرح روابط (تاون هاوس) في فبراير 2017، ثم صدر باللغة الإنجليزية وأقيمت له ندوة في معهد جوتة بالقاهرة في نوفمبر 2018. توالى تدريجياً الأبحاث الأكاديمية التي تناول موضوع الأمومة، والمقالات التي تتحدث عن الأمومة، والكتب التي تضم شهادات عن الأم، وغير ذلك من الأشكال الكتابية التي اشتبكت مع الكتاب بحماس وصدق وإبداع. فكتب مثلاً محمد سمير عبد السلام في مجلة الكلمة أن الكتاب قد جمع "بين نزعة التوثيق، والتسجيل لليوميات، والصور الفوتوغرافية، وبعض التجارب المُستدعاة من الذاكرة، والتأملات الشعرية في الوجود، وفي ثراء مدلول الأمومة، وتجليه كنموذج بكر أول في الوعي، واللاوعي، وعلاقته المعقدة بعبور الهوية، وتشكيل كينونة المرأة منذ الموجة النسوية الثانية، وعلاقتها بإنتاج مدلول الهوية".^(١)

لكن الأهم من وجهة نظري هو أن الكتاب قد فصح أفقاً إبداعياً شخصياً في الكتابة عن الأم، والكتابة هي أحد وسائل الاعلان عن تشكل الذاتية. وكأن الكتاب قد أخرج المسكوت

عنه والجامع على الصدور، فساهم في إعادة النظر في العلاقة مع العالم والعلاقة مع الذات، سواء كانت الكتابة تحمل اعترافاً ما أو تلمس طريقاً جديداً في وسط شبكة علاقات قوى حولت الأمومة والبنوة إلى مقدسات لا يمكن الاقتراب منها. لم يثر الكتاب أسئلة حول تجربة الأمومة فقط، بل كان بمثابة محرك لأسئلة في العلاقة بين الأم والأبناء/البنات. تساءلت مثلاً حين طارق: "لا أعرف إن كان مصطلح «البنوة» هو المصطلح الأمثل لما أكتب عنه هل استفزني كتاب إيمان مرسال كيف تلتئم: عن الأمومة وأشباحها، أم أنني اعتدت أن أكتب عن كل ما تقع عليه عيناى، من أول نفسي حتى الفتات الساقط من طعام المارة؟ ... جل ما أعرفه أنني أريد أن أفضض مع أحدهم حول هذه الصخور التي أحملها، حضور الذنب، رغم أنني لست أماً كما إيمان". (10)

قدمت أروى الطويل شرحاً للسحر الذي تضمنه كتاب مرسال، فقد لاحظت أن غالبية الكتب التي تتناول الأم تبنى نبرة فوقية "من منبر علوي يخطب في المستمعات الملائكات، عن الأمومة وسمو الرسالة وعن أهميتها والمشاعر الغامرة الصافية التي لا تشوبها شائبة. تعرف المستمعات الملائكات أن الحقيقة غير ذلك، فيشعرن كما لو أنهن طُردن من جنة الأمومة المثالية، وأنهن شاذات عن سياقهن، ويشعرن بضرورة إخفاء الفضيحة".

كان لأسلوب مرسال تأثير كبير، إذ جمعت بين الشخصي والأكاديمي والبحفي والنفسي، تجولت بحرية بين كل أشكال الفنون التي تسهم في تشكيل الوعي ولم تُفك في كل هذا التجول الخطيط الشخصي الذي يتحدث عنها كأم في مازق ليس لديها أجوبة عن أي شيء أو يقين تجاه أي حقيقة. لكن

أروى الطويل تكشف السر الثاني الذي جعل الكتاب بمثابة نور يهدي كل الخائضات الصامتات فتؤكد أن تناول الأمومة من منظور ثقافي يعدُّ "إنجازاً أول في الثقافة العربية" التي غالباً ما تتناول الأمومة في إطارين:

إما إطار المؤسسات والقوانين والأكاديمية، عن حقوق المرأة الأم، وإجازات المرأة العاملة، أو إطار ديني أيديولوجي بحث، تكون فيه الأمومة واجباً دينياً، وضرورة اجتماعية مزخرفة بخطاب -أراه أنا بشكل شخصي- طفولياً مزعجاً ينتقص من أهليتها وقدرتها الإنسانية ليس فقط في اتخاذ القرارات المناسبة، بل يحجر حتى على مشاعرها الإنسانية الطبيعية. (11)

ولأن ما كتبه مرسل يُعيد المصادقية للشخصي في ارتباطه بالعام فقد فتح كتابها احتماليات الثام كثيرة بسبب قدرته على تضمين السرديات المهمشة عن الأمومة والبنوة. وبمضمين سرديات مهملة منسية لصالح سردية رئيسية مهد كتاب مرسل الطريق لظهور أصوات تقدم سرديتها التي تسعى إلى الالتئام. واللافت للنظر أن هذه السرديات تظهر على مواقع طليعية لا تعد جزءاً من المنظومة الرئيسية ولا يأخذ بها المتن الراجح العميق، وأضيف أيضاً أنه المتن الذي لم يعد قادراً على طرح أسئلة جديدة متسقة مع سياق سياسي.

نجح كتاب إيمان مرسل كيف تلتئم: عن الأمومة وأشباحها في تحريك الغطاء السميك لفكرة الأمومة التي كانت تبدو أحادية وثابتة ولا يمكن المساس بها. بدأت الأسئلة تنهال على تلك الأشباح، أسئلة في تراكمها وفي محاولات الإجابة عليها ستؤدي إلى تأسيس أدبيات خاصة بالثقافة العربية سيكون عليها الاعتراف بسرديات الأمومة المهمشة. إن السعي لترسيخ

سرديات متعددة للأمم اركزاً على الاختلاف التقاطعي
ليس إلا أحد أشكال مناهضة العنف ضد النساء، ذاك العنف
الذي يُقيّد المسار والتجربة الشعورية ويُجرم الحديث عنها.

حلم الأمومة المجهض

منى إبراهيم

عندما يكون الحديث عن الإجهاض من منظور نسوي يتجه التفكير دوماً لموضوعات بعينها، مثل الصحة الإنجابية وحقوق النساء في أجسادهن والحق في إجهاض آمن. كما يثار الجدل حول حق الأم في التخلص من جنين غير مرغوب فيه، وحق الطفل في الحياة. وعادة ما يدور الجدل بين الناشطات والناشطين النسويات والنسويين من جهة، وبين رجال الدين، باختلاف الديانات التي يمثلونها، وواضعي القوانين من جهة أخرى. وفي كثير من الأحيان تُستدعى العاملات والعاملون في الحقل الطبي للاستشارة، بالإضافة للمناقشات التي تستدعي المجتمع بجميع طوائفه، والمتعلقة بالمسؤولية المجتمعية للأم وانعكاس ميلاد طفل غير مرغوب به على المجتمع ككل، فتختلف الآراء حسب الظروف الاجتماعية لكل مجتمع وحسب حاجته للأطفال أو اكتظاظه بهم وتمثيلهم عبئاً على ميزانيته وإمكاناته. (12)

اللافت للنظر أنه في كل تلك المناقشات والتنظيرات والمجادلات مع الإجهاض أو ضده، تغيب مشاعر الأم التي تفقد جنيناً تكون في أحشائها، مثلها في ذلك تماماً مثل الأم التي تكمل شهور حملها وتلد طفلاً يرى الجميع أن حبها له غريزة، وأنها بالطبع سعيدة وراضية باحتضان طفلها وإرضاعه والعناية به. ففي الحالتين، يتم تمييط الأم، فهي إما امرأة تماضل من أجل "الاستمتاع" بحريتها وحقوقها في جسدها، متجاهلين العلاقة التي قد تولدت نتيجة وجود الجنين في أحشائها، ومشاعر الأمومة التي قد تكون قد نشأت داخلها، والأسباب

التي دفعتها للتخلص من هذا الجنين، وأثر هذا الحدث على تلك المشاعر، أو هي امرأة بلا أدنى شك سعيدة بميلاد طفل، متجاهلين بذلك آلاف حالات اكتئاب ما بعد الولادة والحالات التي تشعر فيها الأم بالتمهيش وعدم القيمة مقارنة بولدها.

فقط هو الأدب الذي يتحرى تلك المشاعر، ويعطي المرأة مجالاً للتعبير عن مشاعرها الفردية دون تعميم أو تمييط. فعلى سبيل المثال، تقدم الشاعرة الكبيرة سيلفيا بلاث صورة غير مألوفاً على الإطلاق للأم الحامل في قصيدتها، "استعارات" (13). ففي تلك القصيدة المكونة من تسعة سطور فقط، في محاكاة لشهور الحمل التسعة، تستخدم الشاعرة عدة استعارات تسخر بعضها من انتفاخ بطنها بسبب الحمل وكأنها "بطيخة تمشي على حودين رفيعين". كما تعبر عن شعورها بالتمهيش وعدم القيمة مقارنة بذلك الجنين في أحشائها، فهو أوراق البنكنوت الجديدة بينما هي كيس النقود، وهو المسرحية، أما هي خشبة المسرح، وغيرها من الاستعارات التي تعطي القيمة الأعظم لهذا الجنين، فهو الغاية، أما هي فوسيلة فقط للحصول على تلك الغاية المأمولة. وتنتهي القصيدة باستعارة أخرى موجعة تزعم فيها المتحدثة بأنها "قد ركبت القطار الذي لا نزول منه"، في إشارة إلى أن عبء الأمومة لا ولن ينتهي بمجرد ولادتها لهذا الطفل، بل سيستمر معها مدى حياتها، وفي جميع مراحل حياة هذا الطفل.

بالمثل، قدم الأدب صوراً عديدة غير مخطية لمشاعر الأم التي تفقد جنينها، سواء بقصد أو دون قصد منها. ويقدم هذا المقال نماذج من تلك الأعمال الأدبية من منظور نسوي، في محاولة لأنسنة موضوع كثيراً ما يُقدّم بطريقة تنأى به تماماً عن المشاعر

الإنسانية للأم التي تفقد جنيناً، فهي إما أصوات عالية بمادي
بمقوق الأم في التخلص من جنينها، أو أصوات أعلى تحاول
سلب هذا الحق بحجج مختلفة. وفي الحالتين، لا ينظر أحد إلى
الأم التي تفقد جنيناً، بالذات لو كان هذا "إرادياً"، بصفتها
أما تحمل مشاعر للكائن الذي تكوّن بداخلها. فبرغم الصوت
العالي والنبرة النضالية التي تنهي بها مغنية الراب والشاعرة
"ليلا جوزفين"، مثلاً، قصيدتها "أظن أنها كانت ستكون بنتاً"
بإعلانها حقها في جسدها واختيارها أن تحتفظ بجنينها أو لا:
"هذا جسدي، هذا جسدي، هذا جسدي/ أنا لا أحب بآرائكم
الجاهلة/ سأكون أما عندما أختار أن أكون"، تبدأ الشاعرة
هذه القصيدة نفسها بوصف رقيق لعلاقة هذه المرأة بالابنة في
رحمها حتى بعد أن فقدتها: (١٠١)

أعلم أنها كانت بنتاً وأظن أنها كانت لتشبهني تماماً. خدود
ممتلئة، عيون عسلية وشعر بني كثيف كنت سأضفره في
أحلام بالليل. كنت سألصق نجحات لامعة في سقفها وكنت
سأخبرها أنها فراشات الضوء تمحيها من الظلام

وتنتقل الشاعرة لتكلم أحلامها بينتها عندما تكبر قليلاً،
وتستطيع أن تشاركها بعض الأنشطة مثل أن تحكي لها
حكايات عن جدّها، وأن يذهباً معاً لإطعام البجع في الحديقة،
ويزورا معاً كل المتاحف لرؤية عظام الديناصور، "وأعجب
من كل الأشياء التي خلقت قبل أن تولد هي". ثم يموقف برهة
مع الواقع، "قد كان يمكن أن تولد". ثم تعود بطلة القصيدة
لتخيلاتها عن الطفلة التي لم تولد، وحميمية العلاقة بينهما،
وكيف كانت ستكون "أماً رائعة"، وكيف كانت ستحمي حتى
ابنتها في الاختيار، وموت من أجل هذا الحق، "كما ماتت هي
من أجل حتى في الاختيار"، مهيّداً للحكي

عن ظروف اختيارها هي لإجهاض حلها. فزى بوضوح من خلال ظروف هذا "الاختيار" المؤلم الذي حرما حلها الجميل ومن اللغة المستخدمة أنه لم يكن في الحقيقة "اختياراً"، فهي "آسفة" وإن كانت لا تشعر بالذنب، "لا أشعر بالذنب، لا أشعر بالذنب، لا أشعر بالذنب". ويكرر هذا النفي بنفس الصيغة عدة مرات تالية، مما يعكس في الواقع إحساساً بمرارة عدم الاقتناع الكامل بقرارها، فيشعر القارئ/ة أن التكرار محاولة لإقناع الذات قبل إقناع الآخرين. يتبع ذلك وصف للواقع الذي دفعها للتخلص من جنين طفلة أحببتها وحملت أن تبادها الحب، وتختم ذلك الوصف الواقعي للظروف وصغر السن وغيرها بسطر مؤلم يعبر عن فقد لا يمكن تعويضه، "إنه خواء تشعر وكأنه ملء، إنه خدر تشعر وكأنه ثقل". هنا يمتدق الشاعرة لكل هذه المناقشات في البرلمان وفي المجتمع حول الإجهاض وحق الجنين في الحياة لتؤكد أنه لا علاقة لأحد بهذا الجنين، فهي من فقدت وهي من تحملت وتحمل هذا العبء النفسي دون غيرها، فهذا بالنسبة لها ليس موضوعاً للمناقشات العامة، لأنه يخص أخص خصائصها وهو جسدها وأحلامها التي فقدتها بفقد هذا الجنين، وأنها امرأة الآن وسوف تدافع عن حقها في جسدها في كل مكان.

أما قصيدة "الإجهاض" لأن سيكستون فهي تجربة ذاتية أخرى اعتبرها أكثر إيلاماً. (15) فبعد العنوان الصادم والذي يعتمد الشاعرة وضعه في كلمة واحدة دون توصيفات، نجد السطر الذي يعكس في مواضع أخرى طوال القصيدة، وهو مقطع منفصل: "فخص كان ينبغي له أن يولد/ قد ذهب". بعدها تبدأ الشاعرة في وصف الطبيعة في هذا اليوم، حيث تفتح الأرض لها وينفجر كل برعم بض من نبتته، بينما

بطلة القصيدة تقوم بأكثر الأعمال روبينية، حيث تغير حذاءها تمهيداً لركوب السيارة والانطلاق في رحلتها إلى الجنوب. تصف الشاعرة الرحلة حيث جبال خضراء يشقها الأسفلت الأسود الشرير، ولكن أوراق العشب الخضراء يانعة، وبمعجب المتحدثة في القصيدة: "وأعجب أنا كيف لأي شيء ضعيف وهش كهذا أن يحيا".

يضع الهدف من الرحلة عندما تصل "بطلتنا" إلى بنسلفانيا وتلتقي بالطبيب الذي يشبه أحد أبطال الحواديت، والذي بقايض الأميرة في الحدوثة على إعطائها طفلها الذي اختطفه مقابل أن تعرف اسمه الصعب، ولكن الأميرة تنجح في التعرف على الاسم وتسترد طفلها. أما بطلة القصيدة فتفقد طفلها إلى الأبد، حيث يُفَرِّغ الطبيب "الامتلاء الذي بدأه الحب". لا توجد أي إشارة أخرى في القصيدة بأكملها لدور "الحبيب" في عملية الإجهاض؛ لا نعرف ما إذا كان يعلم بحملها ولا موقفه من هذا الإجهاض ولماذا تذهب هي وحيدة إلى الطبيب في بلد آخر. لا تحتوي القصيدة على أي ذكر لسبب هذا القرار من قبل الأم إلا التلميح بصعوبة الحياة لكل ما هو هش وضعيف مثل أوراق العشب.

في طريق العودة بالسيارة، تُقدِّم صورة مختلفة تماماً للطبيعة المحيطة، فلا مرتفعات ولا أعشاب خضراء، فقط هو الأسفلت المسطح تماماً "مثل لوح معدني". وحتى السماء تبدو رفيعة جداً مثل "شباك يطل على لا شيء". فالحواء داخلها يعكس على كل ما حولها. ويكرر مرة ثالثة المقطع الصادم: "فخص كان ينبغي له أن يولد/ قد ذهب".

ولكن تأبي الشاعرة أن تنهي القصيدة بشعور الحسرة فقط، بل يصاحبه الشعور بالذنب والاتهام لنفسها بالقتل: "نعم يا

امرأة، يؤدي هذا إلى الفقد/ دون الموت. أو قولي ما تعنيه/
أيتها الجبانة.. هذا الطفل الذي أنزفه". تحدث هنا المرأة التي
أجهضت طفلها مع نفسها بضمير المخاطب مدعية أن من قامت
بهذا العمل امرأة أخرى حيث لا تقوى على تسمية الأشياء
باسمائها، فالطفل لم "يذهب" وإنما "مات"، بل قتل فهناك نزف
ودم.

ورغم أن قصيدة ل "جوندولين بروكس" تدور حول
إجهاضات متعددة لبطلة القصيدة، إلا أن الشاعرة قد
اختارت "الأم" عنواناً للقصيدة وليس "الإجهاض" كما فعلت
آن سيكستون. (١٦) فالقصيدة مثل كل الأعمال المذكورة
في هذا المقال تقدم صوراً لمشاعر المرأة التي تجهض جنينها/
أجنحتها، وكلها أحاسيس أم تفتقد احتضان هؤلاء الأبناء الذين
"لن تهملهم أبداً أو تضربهم/ أو تسكتهم أو تشتريهم بقطعة
من الحلوى"، كما تفعل الأمهات مع أبنائهن، لأنهم قد "قتلوا"،
كما اختارت أن تسمي موتهم، "أطفالي القتلى". ومثل بقية
الأمهات اللاتي قن بعملية الإجهاض في هذا المقال، تشعر
الأم هنا بأنها قد أجهضت حيوات كان يمكن لها أن تمتلئ
بالحيوية وحب الحياة أو حتى بالألم وبأوجاع الموت:

لقد سرقت أنفاسكم وأسماءكم،

دموع الوليد المنهمة وألعابكم،

قصص حبكم الزائفة أو الرائعة، محضكم، زيجاتكم، أوجاعكم،

وميتاتكم

تحاول أن تلمس لنفسها العذر في عدم القدرة على
الاحتفاظ بلك الأجنة، أبناء المستقبل، فقتلهم لم يكن أبداً

نابعا من مجرد رغبة في التخلص منهم، ولكنها تختار مع ذلك لغة لا تدع مجالاً للشك في شعورها بارتكاب جريمة: "حق وإن سمعت أنفاسكم الأولى/ صدقوني أنه حق في عمدي لم أكن أعمد لذلك". هي إذن نفس الدائرة الشيطانية التي تدور فيها الأمهات اللاتي يقدمن على فعل الإجهاض، الصراع بين مشاعر الأمومة وبين الحاجة إلى حماية الجنين مما قد ينتظره في حياة شاقة ومجتمع لا يتقبله لسبب أو لآخر، بين الأحلام المجهضة بحياة سعيدة تحمل بها أم لطفلها وبين خوف من مصير أسود لا ترضاه لهذا الطفل المسكين. ولكن مثل الأم في قصيدة "آن سيكستون"، تنهي "بروكس" قصيدتها بإحساس عميق بالذنب وبحسرة على عدم قدرتها على الاحتفاظ بأطفال أحبتهم ولا زالت:

بما أنكم ميتون على أية حال.

أو بالأحرى، أو بدلاً من ذلك،

لم تخلقوا أبداً.

ولكن ذلك أيضاً، معدرة،

مغلوطاً: أوه، ماذا سأقول، كيف يمكن للحقيقة أن تقال؟

لقد ولدتم، كان لكم جسداً، ومتم،

فقط لم تضحكوا أبداً أو تخططوا أو تبكوا.

ومن ثقافة أخرى تماماً وبوسيط أدبي آخر، هو الرواية، وبظروف تختلف كثيراً عن الأمثلة السابقة، تأتي رواية "دنيا زاد" لمي التلساني (١٧) فتقدم رؤية أخرى لحلم الأمومة المجهض، حيث إن الأم في حالة "دنيا زاد" لم ترهب في فقد الجنين، بل وكانت تموق لولادة الطفلة التي أعطتها اسماً فكرت

فيه جيداً واختارته بعناية. جاء الفقد عنوة بعد ذهابها للمستشفى لتلد طفلتها، لحيء لها بالطفلة في كفنها بعد أن أفاقت من عملية الولادة. لم يشأ أحد أن يخبرها مباشرة أن الطفلة قد ماتت منذ فترة في أحشائها لانفصال المشيمة وأن رحمها كان "مقبرة" لطفلتها، كما أسمته في الرواية:

"لم تعش خارج هذا الرحم المقبرة.. خرجت من مقبرتي إلى مقبرتها ولم تترك لي سوى ذكرى ووجه أزرق اللون. أراه فوق صفحة السماء في الصباح. وفي تموج أغطية الفراش إلى جوارى حين يحل المساء. وجه نائم مختنق وجميل". (20-21)

تشارك إذن مي التلساني، التي تعترف بأن الرواية هي "رواية سيرة ذاتية" (18)، مع ليلا جوزفين وأن سيكستون وجوندولين بروكس، ومع معظم- إن لم يكن كل- الأمهات اللاتي يخترن إجهاض أطفالهن وسط شعور عظيم بالذنب، بالإضافة إلى الإحساس بالفقد الذي عبرت عنه الكاتبة في رواية كاملة، بداية من العنوان الذي يحمل اسم الطفلة التي لم تر النور إلى إهداء الرواية لوجهها، إلى فصول كاملة تحكي فيها التلساني عن أحلامها لهذه الطفلة وعن ألمها لفقدان تلك الأحلام إلى الأبد. نرى في كل صفحة من صفحات الرواية مدى ارتباط الأم الحامل بجنينها بما لا يستوعبه الجدل الذي كثيراً ما يدور حول الإجهاض، والذي يتجاهل تجاهلاً تاماً مشاعر وأحاسيس تصبح جزءاً لا يتجزأ من كيان المرأة الحامل، سواء قررت أن تلد مولودها/تها أو "أجبرت" على التخلص منه في أي مرحلة من مراحل الحمل. تشعر الكاتبة بنفس الإحساس العميق والمؤلّم بالفقد: "وأشعر أن الرحم الخاوي يتحرك مع انعطام أنفاسها التي لم تملأ أنفي برائحتها المعطرة كرائحة الأطفال، لم يسمح أحد بأن أراها تتنفس". (13)

يحفر الحزن له "أخدودًا خشناً تحترق داخله صور الأمل ويبقى جداره صلباً"، وذلك بين الحلق والقلب، "يمر الزمن. وأحرف كلها تحسست رقبتي أن الأخدود لم يزل. وكلها سال خيوط ألم جديد تمتلئ شقوقه ازداد توحشاً". (25- 26) هو إذن ألم لا يزول مع الوقت.

ختاماً، تعمدت في هذا المقال أن أعتد على الأعمال الشعرية أو الرواية الشعرية القصيرة حيث تكشف المشاعر، وذلك للتركيز على مشاعر الأمومة التي تحملها الأم التي تفقد طفلها سواء عن عمد منها أو عن غير عمد. كما رأينا، يختلف حديث المشاعر كلية عن الخطابات الزاعقة حول حرية النساء فيما يفعلن بأجسادهن و"الاختيارات الحرة". هي مشاعر حسرة ومرارة عبرت عنها الشاعرات الغربيات في المقال بنفس القدر الذي عبرت به مي التلساني في روايتها، حسرة الفقد لما كان يمكن لمن ولصغارهن أن يفعلوه معاً، ومرارة الأحلام الموءودة، حتى وإن لعبت الأم دوراً واهياً في وأدها، وكأنه ألم يتجاوز المكان والزمان، ألم تمر به النساء عبر الثقافات. أردت بهذه الأمثلة أن ألفت النظر إلى منظور آخر حول الإجهاض قد يجعلنا نعيد التفكير في خطابات الإجهاض من منظور نسوي، فالأعمال التي تناولها المقال هي بالتأكيد أعمال نسوية ولكنها لا تقدم الإجهاض باعتباره "اختياراً"، إنما هو حدث شديد الإيلام في حياة المرأة التي يتعرض له، وأكبر مصادر الألم هو إحساس بالفقد لحلم أمومة تحتضنه الأم الحامل، حتى وإن أدركت استحالة الاحتفاظ بجنينها. أما المصدر الآخر للألم فهو إحساس عميق بالذنب لخيانة هذا الوليد المجهض بقتله، حتى وإن رغبت الأم في الاحتفاظ به، فهي تلوم في هذه الحالة جسدها الذي لفظه. هي إذن مشاعر لا

يمكن إلا لامرأة تحتوي هذا الجنين داخلها أن تشعر بها.

كتابة الأمومة عند لطيفة الزيات: قراءة في قصة

"الشيخوخة"

هالة كمال

الأمومة من القيم العليا والأدوار الاجتماعية التي تشكلت على مدار القرون باعتبارها الهدف الأسمى لكان المرأة والدور الأهم في حياتها، والذي سعت المجتمعات التقليدية إلى ترسيخها وإعلائها دون غيرها كهدف ومسار في حياة أبة فتاة أو امرأة، بدعم من الثقافة الشعبية والمعتقدات الدينية. ولكن الأمومة لا تقتصر على الجانب البيولوجي المرتبط بالولادة والرضاعة والجانب الاجتماعي الخاص بالتربية والرعاية والمسؤولية، وإنما هي علاقة بين المرأة ووليدتها ووليدها، بل لا تقتصر على الرابطة البيولوجية، وتشكل كآية علاقة إنسانية في ظل سياق اجتماعي وثقافي وتاريخي معين، وهي الرابطة التي التفتت إليها النسويات ونظرن إليها بقدر من التأمل والتحليل من منظور يتناول الأمومة كواقع تعيشه المرأة وأطفالها على مدار حياتها وحياتهم، (19) وذلك استناداً إلى فلسفة نسوية ترى في التجربة الشخصية مصدراً أساسياً للمعرفة يفوق ويتجاوز حدود الصور النمطية والمقولات الشائعة. ولكنني هنا لا أركز على تحليل مفاهيم الأمومة أو تجلياتها بشكل عام، بقدر اهتمامي بتأمل الأمومة كما تراها لطيفة الزيات كقائدة كتبت عن صور المرأة والأم في الأدب القصصي والروائي العربي، وكأديبة تطرقت إلى علاقة الأمهات بيناتهن تحديداً في عدد من أعمالها الروائية والقصصية، وبشكل واضح في قصتها "الشيخوخة" (20) التي صدرت ضمن مجموعتها القصصية الشيخوخة وقصص أخرى في عام 1986.

ولدت لطيفة الزيات (1923-1996) (21) في مدينة دمياط لأسرة مثقفة من الطبقة الوسطى، ولعل شهرتها ترجع بالأساس إلى روايتها الباب المفتوح التي صدرت في عام 1960 وسرعان ما تم تحويلها إلى فيلم سينمائي يحمل نفس العنوان، مع مشاركة لطيفة الزيات في كتابة السيناريو والحوار، فضلاً عن أعمالها القصصية في مجموعة الشيخوخة وقصص أخرى (1986)، ومجموعة الرجل الذي عرف تهمته (1986)، ورواية صاحب البيت (1994)، ومسرحية بيع وشرا (1994) بالإضافة إلى سيرتها الذاتية حملة تفتيش.. أوراق شخصية (1992)، جنباً إلى جنب مع دورها في العمل السياسي منذ رئاستها للجنة الطلبة والعمال (1946)، وصولاً إلى ترأسها للجنة الدفاع عن الثقافة القومية في الثمانينيات وحتى وفاتها في عام 1996. ولكفي أود أيضاً تسليط بعض الضوء على تخصصها الأكاديمي الجامع بين دراسة الأدب والنقد، إذ التحقت بجامعة القاهرة (فؤاد الأول حينذاك) حيث درست الأدب الإنجليزي وتخرجت في عام 1946، ثم حصلت على درجة الدكتوراه في عام 1957م في رسالة عن "حركة الترجمة الأدبية من الإنجليزية إلى العربية في مصر"، وتدرجت في العمل الجامعي في كلية البنات بجامعة عين شمس حيث حصلت على الأستاذية في النقد في عام 1972، وهكذا عاشت تجمع بين الكتابة الأدبية والدراسات النقدية والتدريس في الجامعة والعمل السياسي طوال حياتها.

وسأطرق في بداية هذه المقالة إلى ما اعتبره مساهمة لطيفة الزيات في النقد النسوي للنص الأدبي، وذلك من خلال تقديم قراءة لكتابها الرائد من صور المرأة في القصص والروايات العربية (22) (1989)، قبل أن أتعقل إلى التركيز على

قراءة قصة "الشيخوخة" (1986) كتعبير أدبي عن مسألة شغلت اهتمام لطيفة الزيات في تلك الفترة من حياتها النقدية والإبداعية. وبينما أتناول تصوير العلاقة بين الأم والابنة في القصة، سأركز على أدوات التعبير الأدبي ممثلة في رسم الشخصيات والحبكة والصراع، مع التوقف بقدر من العمق أمام عناصر السرد واللغة وبناء النص وما وراءه من رؤية ورأي. وسأسعى بالتالي إلى قراءة القصة القصيرة في ضوء ملاحظات لطيفة الزيات ذاتها النقدية بشأن تصوير الأمومة في أعمال أدبية عربية. وهكذا تسمى هذه المقالة إلى تتبع مفهوم الأمومة عند لطيفة الزيات - الناقدة والأديبة.

في مقدمة كتابها النقدي من صور المرأة في القصص والروايات العربية تشرح لطيفة الزيات السبب في تركيزها على صورة المرأة في كتابات الرجال لا النساء، حيث ترى أن كتابات الرجال أقرب إلى التعبير عن قيم وتصورات المجتمع، وهي بالتالي لا تهدف إلى نقد التصورات عن المرأة في الأدب بالذات وإنما باعتبار الأدب مرآة للمجتمع. ثم تنطلق في تحليلها للنصوص المختارة لتقدم منظومة لصور النساء في الأدب السائد، حيث تطرح تصنيفاً يقدم المرأة في صورة "المرأة/الشيء" مع منطلق معاملة المرأة باعتبارها من ممتلكات الرجل وخاضعة لأدوار التبعية المحددة لها بخطوطها التي لا يجوز لها الخروج عليها. وتوضح لطيفة الزيات الناقدة أن صورة المرأة المثالية الخائفة المنصاعة والرقيقة العذبة ليس صورة ثابتة جامدة وإنما تحمل أيضاً "سلسلة من الثنائيات المتعارضة":

فهناك المرأة ما فوق العادية أو 'السوبرومان' في مواجهة المرأة الشيء المسلوبة الإرادة والكيان، والمرأة القديسة في مواجهة المرأة الغانية، والمرأة الروح في مواجهة المرأة الجسد، والمرأة

الفكر المثالي أو المطلق المعبود في مواجهة المرأة الخاطئة، وأخيراً وليس آخراً، المرأة المهرمة الأم والأخت والابنة في مواجهة الأم الأخرى الخارجة عن نطاق المهرمات، أو امرأة الآخرين. (ص60)

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الصور بأكملها تأتي كاشفة عن منظور الرجل لا المرأة، حتى في تناولها للمرأة الأم والأخت والابنة، فقلما نجد في الأدب القصصي تصويراً لعلاقة الأمومة على سبيل المثال بين المرأة وابنتها، أو بين المرأة وأماها، وذلك لسيادة مركزية المنظور الذكوري في الأدب والحياة، وهو ما تسلط عليه لطيفة الزيات الضوء في تحليلها لأعمال كبار الكُتاب في القرن العشرين لتوضح ما تطلق عليه "تشيئ" المرأة في الأدب. أما الصورة التي تبدو عليها المرأة دوماً "مشرقة" فهي المرأة الأم حيث "تبدو دائماً في القصص العربي كالثور الذي يحمل الكون، بدأها المتواصل وتضحياتها وتكريسها لكانها في خدمة أسرتها" (ص98)، وهي مفارقة في حد ذاتها حيث تبدو تلك المرأة المنهكة في الواقع أبعد ما تكون عن مثال الإشراقا ويمكن القول هنا بأن الأمومة كما تكشف عنها لطيفة الزيات في الكتابات السائدة هي في الغالب الجامعة لكل الإيجابيات، فهي المرأة الخارقة والقديسة والمثالية والمهرمة، ولكنها هنا صور للنساء بأقلام الرجال، ولا تكشف عن مواقف شخصية بقدر ما تعكس القيم المجتمعية التي تضع الأمومة في قوالب تكشف عن رأي الكاتب ورؤية المجتمع.

وإذا كانت هذه هي صور النساء في القصص العربي كما تراها لطيفة الزيات الناقدة في قراءتها لأعمال كبار مصريين مثل توفيق الحكيم ويوسف إدريس ولجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس وفتحي غانم، وكتاب حرب مثل حنا مننا والطبيب

صالح وعبد الرحمن منيف والطاهر وطار وغيرهم، فأود فيما يلي التوقف عند تصوير لطيفة الزيات الأدبية للأوممة في قصتها القصيرة "الشيخوخة"، والتي يسردها صوت امرأة في الستين تكتب مذكراتها وهي بمأمل يومياتها التي تعود إلى فترة قصيرة في حياتها وهي في الخمسين (بعد زواج ابنتها حنان) ويومياتها الأولى التي كتبتها وهي في الأربعين (بعد وفاة زوجها أحمد)، وتدور معظم الأحداث داخل عقل الراوية ما بين ما يأتي في المذكرات وما يحيره من ذكريات. وعلى مستوى السرد تبدأ القصة بتحديد هوية الراوية بوصفها امرأة وكاتبة موظفة من الطبقة الوسطى، وذلك فيما يوحي بتقاطع مع صوت وحياة المؤلفة ذاتها في مساحات السرد الحالي في منتصف ثمانينيات القرن العشرين، بينما تعود اليوميات إلى عام 1974 مع إشارات إلى يومياتها الأسبق بحوالي عشر سنوات، حيث نفس الصوت السارد في صحيفة ضمير المتكلم (أنا)، كما يتضح من أول مقطع في بداية اليوميات بتاريخ 27 سبتمبر 1974، التي تبدأ كالآتي:

اليوم صباحاً وأنا بين اليقظة والنوم، وجدت نفسي أكرر عبارة شيء ما خطأ، شيء ما لا يستقيم، بعد شهر من عودة ابنتي حنان من غيبة طالت عامين. وللمرة الثانية في حياتي تعاودني الرغبة في تسجيل يومياتي ومواجهة اللات على الورق. وهذا يعني أنني أقف عند حافة الانهيار وأني أسعى واعية للإفلات.

تعن عليّ اليوم أن أزيل تراب عشر سنوات من يومياتي الأولى ولم أفعل، تسع سنوات لا عشر، لم أجسر على الاقتراب من الورق في العام الذي أحقبت موت زوجي أحمد من عشر سنوات. ومع انقضاء العام تأتي عليّ أن أسجل يومياتي.

كانت ابنتنا حنان في السادسة عشرة وأحرج ما تكون إلى أم قادرة على الوقوف على قدميها. ويعأتى علي الآن بعد أربع سنين من زواج ابنتي أن أواجه نفسي على الورق من جديد.

أتوقف لأتساءل: ألم تكن الرسائل التي أدمنت كتابتها لمدة سنتين طيلة غياب حنان نوعاً من المذكرات؟ يزعجني السؤال يزعجني أكثر استخدام الإدمان في صيغة السؤال. (ص24-25)

إن هذا المدخل إلى القصة يجعل كافة عناصر القصص الروائي: الشخصيات والسرد والحبكة والزمان والأسلوب. فالشخصية المحورية هنا هي الراوية الساردة، والحدث المحرك هو علاقة الأم بابنتها حنان من وجهة نظر الأم كما تكتبها في "اليوميات" وتشير إليها في "الرسائل" التي تمتد على مدار عقود، ما بين وفاة الزوج في منتصف الستينيات، وسفر الابنة بعد زواجها في السبعينيات، لتصبح الكتابة والعودة إليها بالقراءة والمزيد من الكتابة في الثمانينيات هي سبيلها لفهم مشاعرهما، وإدراك دور الكتابة كأداة تلجأ إليها في مراحل من حياتها من أجل "الإفلات" من "الانهيار". أما تجربة الأمومة التي تعبر عنها الراوية في القصة فهي لا تنطرق إلى السنوات التي أعقبت وفاة الزوج وتركه الابنة في رعاية الأم، وإنما تركز على فترة لاحقة ما بعد زواج حنان من هشام، وما شهدته علاقتهما من توترات حينذاك، والتي جاءت حسب تشخيص الطبيب النفسي كما يلي:

- التصاق جنيني بالأم يترتب عليه انعدام في النضج العاطفي.

قال الطبيب وهو يشخص سبب اختلال علاقة ابنتي حنان بهشام، بعد سنة ونصف من زواجها. وصرخت مفاجئة

رافضة تشخيص الطيب. كان تشخيص الطيب بمثابة إظهار
إفلاس لي كأم، وبمثابة هزيمة لكل الأهداف التي استهدفتها في
أسلوب تنشئة ابنتي، واحة ومتعمدة. جاهدت عمري وما زلت
أجاهد ليكون لابنتي كيانها المستقل عني وعن الآخر، كيانها
الذي يقف موقف الندية مني ومن الآخر. (ص 29)

ومن الملفت هنا إحساس الأم بالمسؤولية عن تعلق ابنتها
بها، في الوقت الذي لم يصف فيه الطيب النفسي سلوك الأم
بالسيطرة أو السلطة أو التحكم، بل انصبَّ تشخيصه على ارتباط
الابنة بالأم، وتعلقها بها، والذي يمكن فهمه في إطار حياتها
بعد وفاة الأب. ومن الواضح أيضًا أن الابنة بدأت في اتخاذ
الخطوات نحو إنهاء هذا "التعلق الجيني" وآثاره على علاقتها
بزوجها وقرار السفر للدراسة وبناء حياتها بعيدًا عن تعلقها بأمها.
أما رد فعل الأم فهو المثير للانتباه، حيث تلقي باللوم على نفسها
وكانها هي المتعلقة جينياً بابنتها وليس العكس.

وتسرد لنا يوميات 1974 (وهي متن القصة) جانباً آخر
من علاقة الأم بابنتها، نستكشف منه أن الصراع لا يستند
إلى رابطة ثلاثية بين الأم والابنة وزوجها، وإنما يعتمد أساساً
على اختلاف التجربة عبر الأجيال، والذي نراه في التفاوت
بينهما في تعريف مفهوم كالسعادة في الزواج، التي تراها حنان
مشروطة بالتكامل بينما ترى الأم أن أساسها الحب، لينتهي
النقاش بينهما إلى الوصول إلى أرضية مشتركة تعترف فيها الأم
بسداجتها:

يتأتى علينا أن نتعلم من أولادنا وإلا عشنا بطعم المرارة في
حلوقنا، منطلق حنان منطلق صحي سليم يجمع بين تقبل النسبي
وصرامة الالتزام، ومنطقتي، بلا وعي، هو منطلق المطلق
المستحيل.

استخدامي لتعبير السعادة مثلاً ليس سوى بادرة بسيطة من البوادر التي تدل على تشبهي الساذج بكل ما هو مطلق. (ص32) وهكذا نرى الأم دوماً بموقف أمام الأفكار وأمام نفسها وتطرح التساؤلات دون إصرار على موقفها، مما يؤكد لنا بالفعل غياب التسلط في علاقتها بابنتها. ثم نمائل الفهم المطلق للأمور بعقلها قراء "قرين الموت" بينما تتساءل إن كان كذلك في وجدانها. وهي هنا نتمقلنا من مساحات العقل والتفكير والتحليل إلى حيز آخر دفين هو عالمها الداخلي الذي يعبر عن نفسه في أحلامها وأبرزها حلم الطيور السوداء التي تفسرها باعتبارها طيورها وطيور زوجها المتوفي أحمد، وتتساءل: "ولكن علام ترمز هذه الطيور؟ الخوف من الفقد، من الموت؟" (ص34) وسرعان ما تنتقل القصة إلى علاقة الأم بابنتها مرة أخرى، فيتجاوز حلم الطيور السوداء رمزية رحيل أحمد ليوحى بالخوف من فقد حنان، فتواجه نفسها وعلاقتها بابنتها بملك المخاوف: "كيف أصالح بين رغبتني الواعية في الانسلاخ عن عالم ابنتي لتستكمل ما بنت في غيبتني، وبين رغبتني العارمة في إملاء جهيمي الداخلي عليها؟" (ص37) وهو ما يتأكد لاحقاً عندما تجد الأم نفسها تصارع نفس الطيور السوداء حين تخيل كلمات حنان وهشام لها: "ارفع قبضتك عنا لتنفس" (ص51)، بينما تقرر هي التعايش مع تلك الطيور السوداء التي تحتل وجدانها.

وحين نعود مرة أخرى إلى بداية القصة ونربطها بنهايتها، يوضح لنا استخدام لطيفة الزيات لشكل أدبي هو الحكاية الإطار والسرد داخل السرد والنص داخل النص كأداة قصصية، حيث تبدأ القصة القصيرة وتنتهي في عام 1984 والراوي في الستين من عمرها، إذ نمائل الراوية الأم يومياتها

المكتوبة وهي في الأربعينيات والخمسينيات من عمرها ورسائلها لابتها. ويشغل الإطار الصفحتين الأولين والصفحة الأخيرة من القصة والتي نرى فيها المرأة الستينية التي تصف يومياتها بالقصور عن التعبير عن "ضخكتها التي تجاوزت بها كل شيء" واقتصارها على لحظات تعاستها المحدودة مقارنة بما عاشته من "عشرات من لحظات الفرح والحماس والاهتمام بما هو خارج عنها" بينما لم تسجل الأوراق سوى لحظات التعاسة العابرة (ص24).

وتكتمل دائرة القصة بالتوقف عند عنوانها حيث ترد إشارات إلى الشيخوخة وإحساسها بها لا باعتبارها متعلقة بالتقدم في العمر، ولكنها لا تقف عند ذلك وإنما تبحث عن مدى ارتباطها بدهور علاقتها بابنتها "وبكآبة الشيخوخة التي تعاودني في موجات أحدٍ وأمرٍ" (ص35) المذكورة في اليوميات حين كانت الراوية لا تزال في الخمسينيات من عمرها. ولا تصاحب الشيخوخة هنا العجز أو المرض الجسدي، وإنما تتمثل في الجانب النفسي. فالآلام ليست آلاماً جسدية بل نفسية، حيث يرتبط الإحساس بالشيخوخة بحالة الاكتئاب التي تمر بها الأم، والتي تعبر عنها حين تصف الأم موقف ابنتها قائلة: "وهي ترفض بإصرار الإقرار بأني أمر بآلام الشيخوخة، وتستبعد ضاحكة مثل هذا الاحتمال، وترجع حالة الاكتئاب التي أمر بها إلى غضبي منها أو إلى ما قد يكون قد التبس علي من تصرفاتها" (ص35). ويعود صوت الراوية المتأملة لحياتها في الصفحة الأخيرة من القصة حيث تتأمل الراوية الأم يومياتها وتعبيرها عن لحظات التعاسة في حياتها، مؤكدة أن "الشيخوخة هي شعور الفرد بأن وجوده زائد عن حاجة البشر ... والشيخوخة بهذا المعنى حالة، وليست مرحلة من

مراحل العمر، وهي حالة نفسية وليست بالضرورة حالة
فيزيائية" (ص55).

وهكذا تبلور لنا شخصية الأم في هذه القصة من خلال
علاقتها بابنتها، وتعبير عن لحظات تعاسة تمر بها حين تشعر بانتهاء
دورها الأمومي المباشر فيصيبها الاكتئاب. ولكنها كما يوضح
نصح في تجاوز تلك الحالة من خلال تأمل حياتها والانخراط
في عملها ودواثرها الاجتماعية التي تلبس بعض ملامحها
في اليوميات، وإن كانت تغيب بسبب سطوة لحظات الفقد
والتعاسة في حياة الأم التي تعيش تجربة انفصال ابنتها عنها
بالزواج، وما يستتبعه ذلك من فراغ وأسى تعب عنه في يومياتها،
والتي لا تنطرق إلى حياتها بكافة جوانبها وإنما تناول أسبوعاً في
حياة الراوية. وإذا عدنا لتأمل قصة "الشيخوخة" في إطار يجمع
بين لطيفة الزيات الأدبية والناقدة، فإننا نجد في هذه القصة
تناولاً مختلفاً عما هو سائد لصورة العلاقة بين الأم والابنة، وما
قد تحمله من صراعات أساسها الحب والارتباط والتعلق لا
التملك أو السطوة أو التحكم.

وأخيراً، أود الإشارة إلى أن لطيفة الزيات قدمت في قصتها
نموذجاً للأمم المغايرة للصور النمطية التي تناولتها بالنقد في كتابها
من صور في القصص والروايات العربية الذي صدر في وقت
مقارب لنشر القصة، وهي بذلك انتمت بالأمومة في مساحات
بعيداً عن الصورة المثالية المشرقة المعبرة عن توجهات المجتمع،
بينما غاصت داخل النفس النسائية في علاقة الأم وابنتها
لتطرح تساؤلات عن الأمومة أكثر من أن تقدم الأم كثال
ساذج يحتذى، ولا تنتهي بدروس أخلاقية أو أحكام. ومن
هنا تظل القصة مثار الدراسة والتحليل المتباين في الجهود
النقدية، (23) وكذلك في فتح آفاق إبداعية في الكتابة عن

الأمومة وأشباحها. (2.1) إن الأمومة عند لطيفة الزيات
كما ترد في "الشيخوخة" هي مسيرة حياة لا يمكن اختزالها في
موقف أو مواقف أو فترة زمنية محددة بزمن الكتابة، وإنما هي
علاقة عميقة وممتدة ذات جوانب متعددة جديرة بالتأمل تتجاوز
حدود النص داخل النص.

بين الإنجاب والأمومة

نولة درويش

مدخل لا بد منه

حينما طُلب مني إعداد ورقة حول الأمومة، وقعت في حيرة شديدة عن ماذا أكتب وماذا أقول في موضوع يحتاج إلى كثير من الشجاعة مع الذات وربما الانفصال عنها أحياناً، للنظر بطريقة أكثر موضوعية وبعين نقدية مجردة من الانحيازات إلى النفس؛ وهذا التمرين في حد ذاته أمر صعب نفسياً لكنه ليس مستحيلاً، وقد كان مفيداً في إعادة مراجعة عديد مما كنت أعتبره حقائق. لذلك سوف أتحدث أساساً في هذه الورقة الموجزة بصيغة الأنا، ذلك أنني أبني هذه الخواطر على تجاربي ومشاعري الشخصية، وفي رأيي أن هناك أمهات متعدّدات يحملن تجارب وخبرات مختلفة، وأغلب الظن أنه توجد ممارسات متنوّعة للأمومة على مستوى العالم، لذا اعتبره ضرورياً ومفيداً لنا جميعاً أن نتقاسم هذه الخبرات -ربما لإحدى المرات النادرة في تاريخ الفكر النسوي بمصر- لتتلم سوياً معاني أو أوجه الأمومة المختلفة التي لا تعني بأي حال من الأحوال أفضلية إحداها على الأخرى، وإنما تعني تكاملها وربما تعديل بعض هذه الأنماط وفقاً لهذه المناقشة.

بعد أن وُلدت ابنتي يوم، عُدنا من المستشفى إلى البيت حيث كانت تنتظرنا والدتي وإحدى صديقاتها المقربات؛ كانت طفلي نائمة وظلت نائمة ساعات طويلة فتسرب القلق الذي ظهر على وجهي المرأين بينما كنت في حالة بخارح ما بين الخمول والصدمة؛ ثم لجأة بدأن في توبيخي واتهامي بأنني السبب فيما أصاب ابنتي لأنني كنت أدخن بعض السجائر

أثناء فترة الحمل، فانتابني إحساس عميق بالذنب كاد يخنقني،
وعما فاقم هذا الإحساس هو أنني كنت أمر لحظتها بمرحلة
الاكتئاب التي تصيب معظم النساء بعد الولادة - حتى إن
لم يكن يدركونها جميعاً- وفكرت حينئذ أنه الأفضل لي أن
أقتل نفسي. صحيح أن أمي وصديقتها لم يقصدان التسبب في
زيادة اكتيابي -الذي أعتقد أنهما لم يدركاه- ولكن ما كان
يزعجهن غالباً هو أنني لم أبدأ منهن كالصورة النمطية للأمومة
التي تغلقت داخلهن بحكم كل المفاهيم والأساليب السائدة
اجتماعياً ودعائياً حينذاك، والتي ما زالت متداولة في مجتمعنا.
بعد مرور بعض الوقت، أدركت من خلال قصص صديقاتي
اللاتي سبق لهن الإنجاب أن الأغلبية العظمى من المواليد
الجدد ينامون ما يقرب من 18 ساعة يومياً ولكن الشعور
بالذنب كان قد استقر بالفعل.

هذه الصور النمطية للأمومة شكّلت اجتماعياً تماماً كما
شكّلت مفاهيم تؤكد على ضرورة التمييز بين الجنسين على أساس
اختلاف الخصائص الجسدية والنفسية بينهما، والقوة المفترضة
لدى الرجال مقابل الضعف المفترض لدى النساء؛ حدث
هذا الفصل التعسفي في عالم يتسم بهيمنة القيم الأبوية التي
تسعى إلى التحكم في أجساد النساء وتقليم القدرات والطاقات
المهائلة التي دُفنت داخلهن وتقليصها في نطاق توفير خدمات
الرعاية، والعناية بالأطفال ورعاية بقية أفراد الأسرة، خاصة
الذكور منهم، وأداء الأعباء المنزلية، والخضوع لممارسة دور
سلبى في الاختيارات الخاصة بالإنجاب؛ فكم من النساء اخترن
توقيت الإنجاب المناسب لهن، وكيف حومت اللاتي فضلن
إرجاء الإنجاب إلى وقت لاحق، أو اعترضن على فرض هذا
"الواجب" عليهن، سواء من ناحية الأسرة أو

المجتمع الأوسع؟ وكم منهن اضطرن إلى ولادات متتالية بهدف إجاب ولي العهد المنتظر حتى إن كان الرجل هو المتحكم بطبيعته "المتفوقة" في تحديد جنس الجنين! وإن كان الرجال لا يقرون عادة بامتلاك هذا التفوق بالذات، فمن الأسهل إلقاء اللوم على النساء، وإذلالهن، وهو من العوامل المهمة التي تساهم في تكبيل إمكاناتهن الكامنة داخل حدود القضاء الخاص والحد من مشاركتهن في القضاء العام؛ وهو ما يصب لصالح الأجناس الأبوية/البطريركية. للأسف، هناك ملايين من النساء يتبنون هذا المنظور ويرون في ذلك أمر مفروغ منه حيث أن "طبيعة الرجال" متفوقة على "طبيعة النساء" اللاتي ليس أمامهن سوى الانصياع لرغبات الآخرين، والبقاء في موقف التبعية للأب، والزوج، والأخ، والابن، ورجال آخرين؛ كما تُمارس عديد من النساء بأنفسهن الأساليب القمعية المماثلة تجاه نساء أخريات، ربما بسبب عدم إدراك معنى ودلالة ما يقمن به أو لأنهن يحجمن عن النظر داخلهن وكشف الأحوال التي يعشن فيها أو لمجرد الحصول على صك القبول المجتمعي.

ولكن، لا ننسى هنا أن النموذج البطريركي لم يكن دائماً هو السائد؛ فقد وجدت على مر التاريخ الطويل في العصور القديمة والحديثة مجتمعات تتبع نظاماً ماترياركيًا، أي أموميًا، حيث تحتل النساء مواقع السلطة الأساسية، وهن اللاتي يتخذن أهم القرارات، بما في ذلك تحديد الرجل الذي ينسب إليه الطفل، وتشهد بعض المصادر أنه ما زال هناك عدد محدود من المواقع الجغرافية التي تُطبّق هذا النظام الاجتماعي. ومع ذلك، فمن المؤكد إن النظام الأبوي هو المهيمن اليوم في أغلبية بقاع كوكب الأرض.

في هذا الإطار تُقدّم الخطابات التي يتم تداولها بطريقة واسعة من خلال وسائل متنوعة تأكيداً لفكرة الأمومة "الصالحة" من خلال بث صور رمزية للأمومة كما ينبغي أن تكون، كثال السيدة مريم العذراء مما تضمنته صورتها من التضحية بالذات، والابتسامة الودیعة، وتكريس حياتها لابنها يسوع، وصفات أخرى تجعلها قريبة في قلوب عامة الناس من صورة الأم المثالية. كما تحتوي الخطابات الوطنية على الإشارة إلى الوطن-الأم، فقد قُدِّمت صورة امرأة للتعبير عن الثورة الفرنسية التي اندلعت ضد الملكية عام 1789، ثم أصبحت رمزاً دائماً للجمهورية الفرنسية، وذلك على الرغم من أن الفرنسيات لم يبلن حقوق المواطنة الكاملة، بما في ذلك حقوقهن المتعلقة بالعلاقة مع أطفالهن، إلا بعد مضي أكثر من قرن على هذه الثورة، كما ظلت طوال هذه الفترة حقوقهن في ممارسة الأمومة منقوصة مقارنة بالآباء، وتقول الأختية عندنا "مصر هي أمي"، فهي الحانية على أولادها والقائمة على حماية الوطن، ولكن لماذا لا تقول الأختية "مصر هي إحنا" (أي الرجال والنساء، والأمهات والآباء، والأسلاف من الجنسين، البنات والآباء؟)

وعندنا استُحدث الاحتفال بعيد الأم خلال الستينيات في الشهر نفسه الذي يتضمن احتفالين آخرين مهمين، هما: يوم المرأة العالمي في 8 مارس، ويوم المرأة المصرية في 16 مارس، الذي بدأ الاحتفال به رسمياً مؤخراً فقط مع استبعاد يوم المرأة العالمي من الاحتفالات الرسمية، لدلالته على أهمية تثمين التضامن النسوي عبر الكوكب الذي يمثل واحداً من أهم عناصر صمود النساء ضد الظلم والقهر، والواقع أن هذا العيد الجديد الذي دخل علينا خلال شهر مارس، والاحتفالات

المصاحبة له، تُكرس صوراً لتضحيات أمهات وتمامهن لمصالحهن الشخصية لإسعاد أطفالهن وتربيتهم تربية حسنة، أي أمهات صالحات وفقاً للمفهوم العام.

كما أن بروز نموذج المرأة القوية التي تختار مصدر حياتها بحرية يمثل تحدياً خطيراً للنظام الأبوي، فهو يعارض مع الفكرة التي يتم ترويجها حول التفوق الذكوري جسدياً، ونفسياً، وذهنياً، وينفي المزاعم القائلة بأن النساء ولدن فقط لإحجاب الأطفال، خاصة إذا كانوا من الذكور، وللمساهمة في تجميل صورة الآباء، وخدمة الوطن. أما الأدوار الأخرى المتعددة والمهمة للنساء، فهي تظل مهمشة إلى حد كبير.

عودة إلى عنوان هذه الورقة، فلنفكر معاً في الفرق - إن وجد - بين معنى الإحجاب ومعنى الأمومة؟

أزعم أن الإحجاب ميزة بيولوجية تتفرد بها أغلبية النساء بالنظر إلى عدم امتلاك الرجال حتى الآن لهذه القدرة، وإن كان الطب وجميع العلوم الأخرى يتقدم بخطى سريعة على مستوى العالم ومن الممكن أن نشاهد، أو نشاهد الأجيال المقبلة، ظهور معجزات حقيقية في هذا المجال.

صحيح أن هناك مبكراً علاقة خاصة بتولد بين الجنين داخل جسد الأم وبينها، فهي تسمى للتأكد من سلامته طوال فترة الحمل، وتتلاق حينها لا تجده يتحرك داخلها بعد بلوغه فترة محددة من نموه، وهناك أمهات يرغبن في معرفة جنس الجنين قبل الولادة، وإن لم أكن من أولئك، فالمولودة أو المولود - مهما كان جنسها أو جنسه - سيظل الطفل الذي أحبناه والذي لا يسعنا أن نبتلعه داخلنا من جديد، في إطار هذه العلاقة الثنائية يشعر الجنين بقرب نهضات قلب الأم التي تمدّه

بالدفء والطمأنينة، كما يمنحه الدم المتدفق من هذا القلب مقومات النمو، أما بعد الولادة، فهناك رابطة أخرى تتولد خلال شهور الرضاعة الطبيعية، حيث ينتقل جزء من جسد الأم إلى طفلها لتغذيته وضمّان تطوره وانتقاله بعد شهور إلى وضع الكائن المتكامل، جسدياً على الأقل، ثم لاحقاً إلى مراعاة أو مراهم، يليه الإنسان البالغ. لكن كل مرحلة من هذه المراحل العمرية لها خصائصها فيما يتعلق بالعلاقة بين الطرفين.

ففي البداية، تشعر الأم، وفقاً لما شعرت به شخصياً، إنها تخشى على ذلك الكائن الصغير، الذي يبدو كأنه ليس له حول ولا قوة، من أي سوء يعترضه، وتظل قائمة حالة الترقّب وتوفير الحماية ربما أحياناً بطريقة مُبالغ فيها، للتأكد من أن جميع الأمور تسير بطريقة طبيعية، وربما أيضاً للتأكيد على صلاحيتها كأم، سواء بينها وبين نفسها أو مع المجتمع المحيط. هذا، بلا شك، هو جزء من الأمومة والمشاعر التي قد تختلط أحياناً بشكل من أشكال الشفقة المُصاحبة لها، ولكن بالتأكيد ليس هذا كل شيء.

أتساءل مع نفسي وأوجه سؤالاً إلى بقية صديقاتي وزميلاتي وبناتي بالاختيار: هل مفهوم الأمومة تجاه الأطفال متطابق دائماً مع فكرة الإيجاب؟

تطبق أحياناً المشاعر المذكورة أعلاه على نوعية أخرى من الأطفال؛ فقد شعرت بها عدة مرات طوال حياتي مع حيوانات أليفة (أساساً من القطط بالنسبة لي، ولكن ربما من فصائل أخرى من الحيوانات بالنسبة لأخريات وآخريّن) تعاملت معها، فصغارهم أطفال أيضاً يحتاجون إلى من يطعمهم، ويشعرهم بالدفء، ويحتضنهم، ويطبّطب عليهم،

على الرغم من أنهم لم يخرجوا من أجسادنا، وإنما لن يتحدوا لغتنا في يوم من الأيام، ولكنهم سيبادلونا المشاعر بطريقتهم الخاصة؛ فالحيوانات تشتم رائحة الحب من خلال غريزة لديهم تكون أحياناً أكثر حساسية من الموجودة عند البشر. وهذا يوصلني إلى طرح ما يلي: هل كل من ألجئ شعرن حقاً بالأمومة، خاصة إذا كان هذا الإلجاب أمر غير مرغوب فيه؟

التساؤل التالي الذي يراودني متعلق بالأطفال الذين يتم تبنيهم على مستوى العالم، مهما كان الأسلوب الذي حدث به هذا التبني، فهل تقترب مشاعر الأمهات بالاختيار من مشاعر الأمهات من خلال الإلجاب؟

أذكر هنا أن كان لي مساعدة في الشؤون المنزلية، متزوجة ولها طفلان، وحكت لي أنها في مرحلة سابقة على زواجها قررت والدتها أن تحتضن طفلاً يتيماً من أطفال الحى الشعبي الذي يعيشون فيه، فكبر معهم، وكانت تذكره مساعدتي باسم "ابني" وفتخر به، ثم سعت بعد ذلك إلى استخراج أوراق رسمية تحمل له لقب أسرته كي يستطيع أن يمضي في الحياة بسلاسة ويمارس عملاً لائقاً ويتمكن من تكوين أسرة لا تعاني من الظروف نفسها التي مر بها عند مولده؛ صحيح أن هذا السعي حدث متأخراً بعض الشيء من ناحيتها في حياة الطفل الذي كان قد كبر آنذاك، ولكن قيمته المعنوية تظل عميقة؛ ونظراً لأنها تركتني بعد فترة من عملها معي، لا أعلم إن نجحت لاحقاً في مساعها الذي لم يصاحب بمعرفة بالخطوات والإجراءات القانونية اللازمة لتحقيق أملها؛ أليس ذلك مظهرًا من مظاهر الأمومة من ناحيتها؟ قصدت أن أحكي قصة هذه الإنسانية البسيطة التي رأيتها مثلاً واضحاً على مشاعر تقترب كثيراً مما اعتبره مظهرًا من مظاهر الأمومة. ويبقى هنا أن نخبرنا أمهات

أخريات بالتبني ينتمون إلى أوساط أكثر وعياً وإدراكاً إن كانت تلك المشاعر تنطبق عليهن أيضاً، أو إن كانت أكبر أو أقل حجماً تجاه الأطفال الآتين من غير الرحم، بمعنى آخر، أميل إلى الظن أن مشاعر وممارسات الأمومة تتجاوز مجرد توفير الرعاية المرتبطة بالإطعام، والمداواة في حالة المرض أو الإصابات الصحية والجسمانية، أو حتى إظهار الشفقة، مع الاقتصار على هذه الأداءات، أو أن هناك ممارسات أخرى أكثر تطوراً في حياة الطفلة أو الطفل تتعلق بالنظر إليها أو إليه باعتبارها أو اعتباره شخصية في حد ذاتها، تستحق ما هو أكثر من الرحمة، وإنما أيضاً الوقوف إلى جانبها وتكريس أحقية الطرفين في الحفاظ على الاستقلالية الذاتية للاستمرار في حياتنا وطموحاتنا الخاصة.

تذكر أيضاً بعض الكتابات أنه في حين تمثل الأم الطبيعية الصورة الأهم بالنسبة للطفل خلال سنوات طفولته/ المبكرة، من الوارد تماماً أن تلي الأمهات البديلات (من خالات، أو عمات، أو ممرضات، أو مُعلّبات، إلخ) الاحتياجات الجسدية والنفسية للأطفال.

الأمر الآخر الذي يستحق النظر إليه هو علاقة الآباء بأولادهم - سواء الطبيعيين أو المختارين؛ قرأت عن عديد من أمثلة الأبوة التي قد لا تفتقر بطريقة جذرية عن مفهوم الأمومة كما هو شائع تقليدياً، وهذا يستدعي مزيد من المعرفة حول مدى إدراك هؤلاء لطبيعة العلاقة التي تربطهم بالبنات والبنين، وما إذا كانت تخطى حدود الأمر والنهي أو إنها تقول مع سنوات تطور الطفل الذي أمامنا إلى إنسان ناضج، والتعامل معه أو معها على هذا الأساس؛ ولكنني لا أدعي معرفة ذلك، ولذا أتركه موضوعاً مفتوحاً للتقصي أو مجرد التأمل فيه.

بعد الالتحاق من فكرة الأمومة خلال سنوات الطفولة المبكرة للأولاد، دعونا نستعرض بعض المراحل الأخرى في حياة الطفلة أو الطفل؛ وأبدأ بمرحلة العند التي يمر بها معظم الأطفال حسب معلوماتي المتواضعة، والتي اختبرتها في وقت مبكر، بدءاً برفض نوعية الطعام الذي تقدمه لهم، فلنا منا إنه الطعام المناسب لنموهم الصحي السليم، وتفاقم الشعور بالحيرة حول ما يجب أن نفعل مقابل الصفات الصارمة التي تفرض علينا، سواء من جانب أطباء الأطفال أو من أمهاتنا، أو بعض الأقارب؛ فأتذكر أن ابنتي كانت ترفض بإصرار الجلوس على "القصرية" لتعلم أصول التخلص من البول والبراز، فإذا بواحدة من النساء المهيطات الأكبر سناً وخبرة مني نصحتني بإجلاسها على المقعد الصغير لمدة ساعات إذا لزم الأمر حتى تؤدي المطلوب منها؛ ولكن هذه الطريقة لم تفلح قط، إلى أن جاء يوم التعرف على دار حضانة جديدة قررت إنها تعجبها، ولكن أفادتنا المشرفة إنهم لا يقبلون الأطفال غير المدربين، فقررت ابنتي خلال أسبوع واحد أن تتعلم وتجتود أداءها حتى تستطيع الالتحاق بهذه الحضانة؛ فمن الواضح أن الحافز شديد الأهمية في تطوير ممارسات الطفل، رغم أنه لا يعني إطلاقاً أنني قد تجاوزت كل الغيظ الذي شعرت به تجاه ابنتي، سواء في الموضوع المذكور أعلاه أو أثناء التلكؤ في المذاكرة وأداء الواجبات المدرسية، إلخ.

ثم نأتي إلى سنوات المراهقة وأشكال أخرى من العند التي تطلبت مني مزيد من الجهود حتى لا أبرز العصبية التي أشعر بها تجاهها، ولكنني للأمانة لم أفصح دائماً، خاصة إنني كنت قد أصبحت منذ فترة طويلة أما حزباء، وأتمهل وحدي جميع المسؤوليات المتعلقة بها من تنظيم مسار حياتها، وتوفير نفقات

الإعاشة لكلينا، والعثور على المجالات التي أرغب العمل فيها،
والسعي إلى تحقيق تطلعاتي المهنية والإنسانية والعامة، واستمرار
توفير حياة تشعر فيها الابنة بالحماية وبالدفء وبالأمان، ومحاولة
الظهور أمام المجتمع المحيط بي باعتباري أما لائقة. لا أعتقد
أنني فلتحت في كل ذلك، سواء أمام ابنتي أو من حولي ممن
كانوا يرون في إنسانة مُتمردة خارجة عن الأعراف المعمول
بها اجتماعياً. أتذكر هنا إنني كنت فرضت بطريقة أو بأخرى
على ابنتي خلال سنوات الطفولة متابعة تدريبات لفن الباليه،
وهو ما تمثل في أحد أحلامي أثناء شبابي لكنني لم أتمكن من
تحقيقه حينذاك، لحدث أن أسقطت هذه الرغبة على ابنتي
التي رفضت لطلبي في طفولتها بدون حماس عميق، ولكنها قرب
الدخول في سن المراهقة قررت أنها تريد ترك هذا المجال، فلم
يبق أمامي إلا الرضوخ لإرادتها التي لا أستطيع أن أعارضها
أكثر من ذلك، وأدركت لاحقاً أننا لا ينبغي أن نُملّي على
أطفالنا تطلعاتنا الخاصة، ولكن من حقهم أن يختاروا ما
يريدون ويتركوا ما لا يليق باحتياجاتهم الإنسانية من وهم،
وأن الأمومة ليست فرضاً أو تسلطاً.

في السنوات التالية أصبحت الطفلة الصغيرة امرأة شبه ناضجة
إلى أن بلغت تمام النضج في مرحلة لاحقة، وبدأت فيما بيننا
علاقة تتناوبها مشاعر وردود أفعال متباينة وأحياناً متضاربة،
فبعد أن اعتدت منذ ولادتها على فكرة أن الحبل السري
سيستمر بيننا مدى الحياة، شرعت من ناحيتها أن تقطعه مع
دخولها في علاقات جديدة مع صديقات وأصدقاء خارج نطاق
زميلات وزملاء سنوات الدراسة، وسمعت من جانبي أن
أطوّر علاقتي بهؤلاء حتى أتمكن من متابعة تفاصيل حياتها من
قرب، لكنني لم أكن من سنهم ولا تطابق اهتماماتي مع

اهتماماتهم، ثم اندرجت الابنة في مجال فني أخذها بعداً حفي تماماً، فبدأت أنتبه أكثر إلى علاقتي الشخصية، وإلى أدائي في المجال العام، وأكون علاقات جديدة، وأنتبه أكثر إلى ما يدور حولي. وفي يوم، شاهدتها خلال عرض أحد الأفلام الذي أدت فيه دور البطولة فأدركت في هذه اللحظة الفارقة أن أُمِّي امرأة كاملة النضج، من حقها تماماً أن تعيش حياتها كما تشاء، وأن المطلوب مني هو مسانبتها وتشجيعها في اختياراتها، وإبداء الرأي إذا طُلب مني، والتعامل معها كصديقة أكثر من أم. أصبحت هي أُمًّا بدورها، وأُمنِّي لها ألا تقع مثلي في الأخطاء التي ارتكبتها، والتي كادت تحصل في بعض الأحيان إلى انفجارات حقيقية فيما بيننا.

حاولت أن أستوعب أن الأمومة ليست فرضاً أو تسلطاً، ولكنني أدركت أيضاً لاحقاً أن هذا المفهوم ينبغي أن يطبق على الجانبين، أي الأم من ناحية والطفلة أو الطفل من ناحية أخرى؛ فقد لاحظت على مر السنوات أن هناك ما اقترضت ابنتي أنه يدخل في إطار واجبات الأمومة وعدد من الالتزامات التي يُنظر إليها على أنها من الأمور المفروغ منها، بينما هذا ليس صحيحاً دائماً، فواجبي تجاه ابنتي في طفولتها المبكرة -حينما لا تزال غير قادرة على الاعتماد على النفس في جميع نواحي الاحتياجات العملية- تختلف بتطور المشاعر مع وجود إنسان بالغ أمام الأم ينبغي التعامل معه بندية كاملة دون انجبل أو الإحساس بالذنب من ذلك.

النقطة الأخيرة في العلاقة بين الأمومة والبنوة تتعلق بحقوق الأم تجاه أطفالها كما تجاه نفسها، فأذكر أن ابنتي عاشت خلال شبابها واقعة أليمة أدت إلى وفاة شخص عزيز عليها، وكنت في ذلك الحين مرتبطة بالالتزامات وظيفية اقتضت أن أكون

متفرغة لأدائها بأكل شكل معظم الوقت، فرغم احتياج ابنتي إلى وقوفي بجانبها في تلك الفترة العصيبة من حياتها، ارتأيت أن أوجل لبضع ساعات تأدية واجبات العزاء حتى أنتهي من مهامى العاجلة. ربما أكون أخطأت في حقها، أو أنها لم تغفر لي ذلك فيما شعرت به من ذنب تجاهها ومن جفاء من جانبها.

ولكن دعونا ننظر إلى نماذج أخرى من الأمهات، منهن النساء اللاتي انضممن إلى ثورة 25 يناير 2011، ولا شك أن كثيرات منهن أمهات؛ فهل معنى هذا أن مشار الأمومة منقوصة لديهن؟ أو أن هم قلقهن على أطفالهن قد المنخفض؟

ابنة صديقتي، الأم العزباء التي يعاني طفلها من التوحد، ظلت تعتني بابنها طيلة سنوات بكل حب وعناية، وفي إحدى منعطفات حياتها قررت أنها بحاجة إلى تحقيق شيء من أجل نفسها، وأخذت بكل شجاعة ابنها إلى بلد بعيد، وانضمت إلى دورات تحضيرية للماجستير؛ صحيح أن والدتها المناضلة النسوية والحقوقية ساعدتها كثيراً في تحقيق هذا الحلم، وأعتقد أنها فعلت ذلك مدفوعة بمشاعر الأمومة التي جعلتها يفهم كامرأة احتياجات امرأة أخرى، تسعى مثلها إلى إثبات الذات، أنها قادرة على تجاوز الواجبات الخاصة بالأمهات عموماً سواء بالإيجاب، أو بالتبني، أو بأي أشكال أخرى، لتخرج إلى العالم الواسع الذي يلي أيضاً احتياجاتها الخاصة؟ فهل نحن أمام أمومة مزيفة؟

في رأيي الشخصي أن ممارسة الأمومة مرتبطة أيضاً بفكرة الارتباط بالاختيار الطوعي الحر من الناحيتين الذي لا يجب أن تكبله القيود والأعراف الاجتماعية والثقافية، والاعتبارات الاقتصادية التي تعتبر أن وظيفة الإيجاب تؤدي حتماً إلى توليد الشعور بالأمومة، ولكنها لا تعترف دائماً بالمساهمات التي

تقدمها وظيفة الابنة، والزوجة، والشقيقة، والأم، في تغذية
سواء الناتج القومي أو الخالص داخل الأسر. كما أن الأمومة
عبارة عن علاقة بين كائنين يحتاجان إلى التكافؤ والمساواة
بينهما، مع احترام اختيارات الآخر حتى وإن كانت أحياناً
خاطئة من وجهة نظر أحد هذه الأطراف؛ وهي بلا شك
علاقة حب، ولكن لا يمكن بناؤها على أساس تبعية طرف
للآخر.

أخيراً وليس آخراً، هذه ليست سيرة ذاتية وإنما بعض
التجارب الحياتية التي قد تكون مفيدة في هذا الحديث الذي
حيرني كثيراً القلق من كيفية الخوض فيه، ومن أين أدخله،
أو ما المداخل الصحيحة له؛ ولكنه ساعدني في التأمل حول
بضعة مواقف عشتها وكيف مارستها، وفي غربلة الصبح من
الخطأ، أي أنه مثل نوعاً من النظر بوضوح أكبر داخل نفسي
وتحليلها قليلاً، بما في ذلك حالات الغضب، وربما شكل من
أشكال الغيرة التي عشتها وشعرت بها تجاه من اعتقدت أنهم
سبب الابتعاد بيني وبين ابنتي، ولم أفهم في حينها أن الآخرين
لم يكن لهم ذنب في توليد ظنوني.

أريد أن أؤكد فقط في نهاية هذه الرحلة الشاقة أنني ما زلت
لا أمتلك حتى الآن إجابات وافية، مكتملة، أو مقنعة، وأني
بقيت في حالة من الضياع أمام السؤال الصعب المطروح.

كرب ما بعد الولادة:

رؤية نسوية للمسكوت عنه حول

آلام الولادة النفسية قبل الجسدية

علياء طلعت

تخيل/ي معي هذا المشهد: "شخص شبه جالس شبه قائم على كرسي مع ساقين مرفوعتين في الهواء، يتألم لساعات قد تزيد عن الاثنتي عشرة ساعة، ألمًا يؤدي إلى الصراخ والبكاء، ويعدّ من أعلى مستويات الألم المثبتة علميًا، والذي يمكن مقارنته بألم كسر العظام، يستمر هذا الألم حتى يخرج كائن حي من بين ساقَي هذا الشخص، ثم يستمر في النزيف لمدة أربعين يومًا". صورة تشبه أفلام الرعب بالتأكيد، مع الدماء والعرق وكافة الإفرازات الممكنة، ولكنها ليست صورة نادرة، بل تحدث في كل ثانية بموضع على الأرض، تلك هي الولادة الطبيعية، المستمرة بذات الطريقة مع تعديلات بسيطة منذ بداية البشرية.

تخيل/ي معي مرة أخرى المرأة التي مرت بهذه التجربة المروعة، الألم المستمر لساعات في الولادة الطبيعية -الذي يتطلب في أحيان كثيرة شق العجان- أو حتى الولادة القيصرية التي يتطلب قطع طبقات البطن ثم إعادة خياطتها -الأمر الذي يعتبر عملية جراحية عالية الخطورة بالفعل- هذه المرأة التي نزت وستنزف الدماء بغزارة الأيام القادمة، والتي عانت بالفعل لتسعة أشهر من آلام الحمل المختلفة، مطالبة الآن بالقيام بدورها كام.

أمر لا يمكن تخيله بسهولة، ولكنه يحدث لنسبة هائلة من

النساء، وليس مرة واحدة في العمر، ولكن عدة مرات، هذا بالإضافة بالطبع إلى التقلبات الهرمونية، وقلة النوم نتيجة للرضاعة الطبيعية، بل تلك الرضاعة تسبب أوجاعاً جسدية ونفسية أخرى، ذلك هو حال الأمهات الجدد، وهذا هو ملخص كرب الولادة الذي سنلقي عليه نظرة مقربة هنا.

كرب الولادة ليس أسطورة

ما لا يعرفه الكثيرون أن هناك ما يسمى بـ "كرب ما بعد الولادة" (postnatal PTSD) (25) والذي يحدث لأسباب عدة، منها المخاضات الصعبة والولادات الطويلة والمؤلمة، والعمليات القيصرية غير المخطط لها، ومشاعر فقدان السيطرة خلال الولادة، والتي تجرد الأم نفسها خلالها وحيدة ضمن طاقم طبي ليس بالكامل متعاوناً أو لطيفاً، وفي كثير من الأحوال تغلب على أجواء غرفة الولادة التوتر والعنف وعدم الاستماع لاحتياجات الأم، ولا يتم تفسير حالتها لها، بالإضافة بالطبع إلى انعدام الخصوصية، والإجبار على التعري بشكل لم تعتد عليه أي امرأة من قبل، وكذلك القلق على سلامة الجنين، أو إقامته في وحدة في العناية بجديتي الولادة، وفي بعض الأحيان تسترجع الولادة صدمات أخرى مثل ولادة سابقة، أو عنف منزلي.

طبقاً لهذا التعريف يمكن مقارنة الولادة بتأثيرات الحرب على الجنود، أو الصدمات النفسية الناتجة عن حوادث السيارات، أو مشاهدة شخص آخر يُقتل بعنف، وكلها من مسببات الكروب، وتظهر الأبحاث أن حوالي 4-5% (26) من النساء اللاتي يلدن يعانين من اضطراب ما بعد الصدمة هذا، وتختلف أعراضه من امرأة إلى أخرى، ومنها الفلاش باك أو استرجاع

لقطات من أحداث الولادة، والكوايس والقلق الشديد، وتجنب أي شيء يذكر الأم بالولادة مثل رفض المرور بجوار المستشفى التي ولدت فيها، أو مقابلة نساء أخريات لديهن أطفال جدد، وسرعة الانفعال والغضب، أو الخوف من إصابة الصغير بأي عارض، بالإضافة إلى الإحباط والتعاسة، والذنب، ونسيان مشاهد من تجربة الولادة.

كل ذلك يجعل الحياة اليومية للأم الجديدة صعبة للغاية، وتعاني كثيرات أخريات من بعض أعراض الصدمة، ولكن ليس بدرجة كافية لتشخيص اضطراب ما بعد الصدمة، ويتم استخدام مصطلح "صدمة الولادة" أو "كرب الولادة" لتغطية كل هذه الأحاسيس.

تقول حول هذا الكرب الطبيعية النفسية دينا الشيخ: "الكثير من الأبحاث أظهرت أن هناك ما يدعى كرب ما بعد الولادة، كما أن هناك الكثير من الخوف الطبيعي لدى السيدات والفتيات اللاتي لم يخضن هذه التجربة من الأساس بسبب القصص المتواترة حول صعوبات الولادة، الأمر الذي يجعل بعضهن أحياناً يرفضن الولادة الطبيعية ويفضلن بدائل أخرى هرباً من هذه اللحظة".

السحر الودي وكرب الولادة

ما أن تبدأ المرأة رحلة حملها حتى تملأ عشرات النصائح حول كيفية العناية بصحتها لأنها مصدر الحياة والتغذية لجنينها، وهو ما أطلقت عليه المعالجة النفسية "فيليبا بيري" اسم السحر الودي في كتابها بعنوان "الكتاب الذي تمنى لو قرأه أبواك"، طبقاً لما تزرع هذه النصائح في الأم الانطباع بوجود حمل مثالي، ما يقود إلى الاعتقاد بوجود أم مثالية تعمل على تنشئة

طفل مثالي لا تشوبه شائبة، الأمر الذي يؤثر سلباً على تجربة الأمومة بالكامل، والعلاقة مع الأطفال، وأضافت أزمة كرب الولادة أن الأمهات اللواتي يمررن به لا يجدن الدعم المطلوب، لأن غيرهن من الأمهات اللواتي لم يعانين منه يجدون صعوبة بالغة في تفهم تأثير حدث الولادة السلبي على بعض الأمهات، خاصة لو مررن بتجربة ولادة سهلة.

وبالتالي تعاني هؤلاء النسوة من هذه الآلام النفسية والجسدية شديدة الوطأة وحيدات، والأسوأ أنهن يشعرن بالذنب والضعف طالما غيرهن من النساء لا يمررن بهذا الوضع، بينما هن لا يستطعن نسيان تجربة الولادة المرتبطة لديهن فقط بالأحاسيس السيئة.

هذا عبء ثقيل لتحمله امرأة واهنة نفسياً وجسدياً، خاصة وأن طبيعة هذا النوع من الكرب تجعل من المستحيل التوقف عن التفكير في التجربة المسببة للصدمة، ومع غياب الدعم سواء من المقربين والأسرة أو الأطباء. تصبح الأم حبيسة عقلها وجسدها اللذين يهاجمانها بضراوة.

تدهور علاقات الأم الاجتماعية نتيجة لهذا الكرب، فهي لا تجد الدعم بين من يفترض بهم مساعدتها، بل في الكثير من الأحيان تُهاجم بسبب شكواها النفسية، أو عدم إبدائها سعادتها بالأمومة، أيضاً الكثير من الأمهات المصابات بهذا الكرب يتفادين الحمل مرة أخرى لعدم تكرار تجربة الولادة وما بعدها، وفي بعض الأحيان ينفرن من العلاقة الجنسية نفسها، الأمر الذي يمثل ضغطاً إضافياً على العلاقة الزوجية الواهنة بالفعل نتيجة لإيجاب طفل جديد يغير من موازين القوة في المنزل.

كذلك في هذه الحالة تتجنب النساء أي تدخل طبي يذكرهن بالولادة، حتى لو لإجراء بعض الفحوص، هذا بجانب ضعف قدرتهن على الترابط مع الوليد، الذي يذكرهن بشكل دائم بما اختبرن من كرب وصدمة. السيدة "آ. ص" مرت بكرب الولادة ولا يمدكر من الأخيرة سوى الألم، ما جعلها ترفض حتى تركيب "لوب" لمنع الحمل حتى لا يتعرض مرة أخرى لذات التجربة التي قالت عنها: "رحت للمستشفى بآلام الولادة، ولكن الطلق لم يكن حامياً بما فيه الكفاية، ولم يفتح عنق الرحم لخروج الجنين، وبشكل مفاجئ فتحت الطبيبة كيس الماء باستخدام وسيلة خارجية شبه إبرة الكروشي، الأمر الذي أدخلني في نوبة ألم لا يحتمل، وجف الماء حول الطفلة، فاضطرت الطبيبة لإدخالي غرفة العمليات لجراحة قيصرية عاجلة"، أضافت: "جريت ألم الولادة الطبيعية والقيصرية في ليلة واحدة، لا أتذكر عن هذه التجربة غير رعب عدم تحكمي في جسدي، ولن أسامح الطبيبة التي لم تستشرنني في أي إجراء طبي قامت به".

أما عن السحر الودي وتأثيره على الأمهات الجدد، فقد عانت منه السيدة "ش. ر"، وهي أم في نهاية الثلاثينيات، ومر على إنجابها عدة سنوات، لكن ما زالت تذكر تجربة الولادة وما بعدها حتى اليوم بمرارة، فالجميع من حولها، ما عدا زوجها، أخبروها أن عليها الرضاعة بشكل طبيعي لصحة جنينها، ولكن الأمر لم يكن بهذا السهولة بالنسبة لها مع متاعبها الصحية، فقالت عن التجربة باكية: "لم أرضع ابني بشكل طبيعي غير شهر واحد، كان الشهر الأصعب في حياتي، وكل ما تذكرت هذه الفترة جالي نوبة قلق شديدة، وما بقدرش أتمنفس، الأطباء والطبيبات في مصر بنسبة كبيرة ذكوريون، عندما تحجر اللبن

في صدري، وأصبح الألم غير محتمل، استمات الجميع لأستمر في الرضاعة مهما بكيت من الوجع، وسمعت كلمات مؤذية مثل كلنا اتوجعنا ونحملنا، وأنتِ بتدليني". أكملت: "رحت خمسة أطباء وطبيبات، كلهم أصروا على الاستمرار في الرضاعة على الرغم من وضي الصحي والنفسي المتدهور، وحصل لي تلف في قنوات اللبن نتيجة لهذه المحاولات، قال لي الجميع إنني أم فاشلة، وواحدة من الطبيبات قالت لزوجي إنه يدلعني زيادة عن اللازم، ويجب يجبرني على الرضاعة لصحة ابنه، لغاية النهارده عندما أسمع أي كلام عن الرضاعة والولادة لا أتوقف عن البكاء، ولولا دعم زوجي وإصراره على الذهاب لطبيب نفسي متخصص ما كنتش هتجاوز هذه الصدمة نهائيًا".

من وهم الأمومة المثالية إلى تجربة لن يتكرر

منذ أكثر من 11 عامًا دخلت تجربة الحمل والولادة مفعمة بالأمل، قضيت شهور الحمل على متاعبها الصحية في عزلة مع إبرة الكروشييه والصوف والمسلسلات والأفلام، شغلت للصغيرة كل ما قد تحتاجه، بداية من فستان السبع

وحقيقية مستلزماتها، وحتى الهدايا التي سأقدمها للمدعوين في الحفل الكبير الذي أنوي إحياءه بعد ولادتها القادمة.

تورمت قدماي حتى زادا عن مقاسهما الأساسي بدرجتين فتخلّيت عن أحديتي الأنيقة، كبر حجمي حتى أصبحت عاجزة عن الجلوس والقيام دون المساعدة، فتعلمت التدرج لدخول الحمام المتكرر في المساء، وتنهأت للأسابيع القليلة قبل الولادة وأنا أحاول الحفاظ على معنوياتي العالية.

كان اليوم الأخير قبل الولادة حافلًا بالأحداث، استيقظت مبكرة في السادسة صباحًا، وأنا مصابة بسعال شديد، مرض

آخر لا أستطيع التداوي منه بسبب الحمل. ذهبت لمنزل والدتي لأحاول النوم لساعة أو اثنتين. كان من رابع المستحيلات مع كل هذا الألم، فأكلت اليوم وأنا شبه غائبة عن الوعي. خرجت وطبخت، وأكلت، فعلت الكثير، ولكن قبل أن أودع أمي شعرت إني أفتقد شيئاً، فزعت من اكتشافي، فالصغيرة لم تتحرك في بطني منذ ساعات لا أذكرها.

تعلم كل حامل أن عليها عد حركات الجنين على مدار اليوم كوسيلة للاطمئنان على صحته، لم أشعر بها، أخبرت والدتي الطيبية، فقالت لي: اذهبي للمنزل واشربي شيئاً حلواً وراقبي حركتها. فعلت، مرة واثنتين وثلاث، فقت بكل الحيل التي تعلمتها من مواقع الإنترنت، رششت بطني بالمطور، دلكتها بالكريمات، أخذت حماماً دافئاً وبقي الوضع على ما هو عليه.

كلمت أمي في الثانية صباحاً، فأخبرتني بلهجة آمرة: "اسبقيني على المستشفى". أيقظت زوجي، وحاولت شرح ما قد نواجهه، للحظة أجهشت في البكاء، ولكن لم أكل أكثر من ثائنتين، ثم تماسكت سريعاً مع فكرة أنني لو انهرت سأفقد الصغيرة، الآن عليّ مسؤولية الذهاب للمستشفى بأسرع وقت ممكن.

استمرت الفحوص لساعات الفجر الأولى، وما إن طلع الضوء حتى أخذ الأطباء القرار بولادة اضطرارية، فالطفلة تكاد تحتنق بسبب وضع جسدها الخاطئ، دخلت غرفة العمليات، فسألني الطبيب: "هل ترغبين في تخدير نصفي أم كلي؟" أجبت: "لا أعرف"، كانت الأمور خارجة عن سيطرتي منذ ساعات، لم أتخيل أن ألد قيصرياً وقد أعددت العدة لولادة طبيعية.

اختار الطبيب التخدير الكلي على خطوره، تمت واستيقظت

على ألم مرعب في بطني، وشخص ما يضغط عليها، فتحت
عيناي وأنا أصرخ غاضبة لماذا أتألم هكذا، لم أع أي في هجرة
الولادة، كنت لا أرتدي نظاراتي الطبية، وشبه غائبة عن
الوعي، وحيدة وعارية وأشعر بالبرد الشديد على منضدة
العمليات الثلجة.

كان فقدان السيطرة في هذه اللحظة بداية سلسلة طويلة من
الأيام التي تعاضد فيها الألم الجسدي مع النفسي لهزيمة كل
آمالي السابقة في أمومة هائلة، استعددت لها بقراءة الكتب
المختلفة والمقالات باللغة العربية والإنجليزية.

تَمَّصْتُ دور الأم المثالية التي تخفي أوجاعها لمدة عام
كامل، حكمت لابنتي الملابس الصوفية، وصنعت لها أكثر
الوجبات المنزلية الصحية تعقيداً، والتي لفظتها كلها في وجهي
وعلى جميع الأسطح الممكنة.

نظفت البيت آناء الليل وأطراف النهار، شعرت أن لعبة في
غير مكانها تعني أنني امرأة فاشلة وأم ليست على قدر المسؤولية،
كان عليّ السيطرة على كل شيء، بداية من صحة ابنتي وحق
الفوضى السياسية التي اجتاحت العالم في العقد الثاني من
الألفية الثالثة.

سكنتني هلع دائم من حملي مرة أخرى، حتى اليوم أعتبر يوم
بداية دورتي الشهرية عيد يجب الاحتفال به، وعندما تأخر يوماً
أو بعض يوم يصيبني الهلع الشديد، أصبحت الدليل على أنني لن
أدخل هذه الأفوانة النفسية والجسدية مرة أخرى.

لم أكن أعلم أن ما أصابني هو كرب ما بعد الولادة، وأن
أحداث اليوم السابق للولادة، والقلق الشديد وانعدام اليقين،
والتخدير والاستيقاظ على ألم ممض، كلها أسباب كافية

لإصابتي بصدمة غيرت من طريقة تفكيري للأبد، وبدلاً من إجاب طفلين أو ثلاثة مثلما اتهمت اكتفيت بالصغيرة.

كرب الولادة واكتئاب ما بعد الولادة

هناك تداخل كبير بين كرب الولادة واكتئاب ما بعد الولادة، لأن بعض الأعراض متشابهة بالفعل، ولكن الاضطرابين مختلفان ويجب علاج كل منهما بطريقة مختلفة، وبشكل فردي.

ولسوء الحظ، يتم تشخيص العديد من النساء بشكل خاطئ باكتئاب ما بعد الولادة، ويوصف لهن أدوية لا تقوم إلا بالقليل أو لا شيء لمساعدتهن في التعامل مع مشاعرهن، مع نصائح مثل محاولة المضي قدماً في حياتهن أو أنه يجب عليهن فقط أن يشعرن بالامتنان لأن لديهن طفلاً يتمتع بصحة جيدة، ما يؤدي إلى تفاقم مشاعر الذنب والعزلة التي تشعر بها النساء بالفعل، وقد ينتهي الأمر بالحصول على وصفات طبية لمضادات الاكتئاب، وذلك ببساطة لأن الأطباء لا يفهمون الكرب الذي تشعر به النساء.

الطبيبة النفسية "رنا أشرف"، على الجانب الآخر، أكدت على أن النساء المصابات بالاكتئاب قبل الحمل في حياتهن الاعتيادية، بنسبة 40% يصبن باكتئاب ما بعد الولادة، وكذلك الأمر بالنسبة للذهان، أيضاً لو أصيبت المرأة باكتئاب ما بعد الولادة في الحمل الأول، هناك احتمال كبير لتكراره مع الأولاد التاليين، وترفع الاحتمالات في حالة وجود تاريخ عائلي مرضي.

أجملت الطبيبة رنا: "يختلف اكتئاب ما بعد الولادة عن الاكتئاب العادي في كون الأم لا تفكر في إيذاء نفسها فقط،

لكن كذلك الطفل، الأمر الذي ينبع من اختلاط أفكارها بالشعور بالذنب من كونها أتت به لهذا العالم القاسي، أو لعدم قدرتها على العناية به بشكل سليم، بينما الذهان قد يزدع لدى الأم أفكار أكثر غرابة وعنفاً، فتسمع في هذه الحالة أصوات تحثها على إيذاء الطفل".

وأرجعت السبب وراء الإصابة باكتئاب ما بعد الولادة، أو كرب الولادة، إلى الضغط النفسي والجسدي الذي يتعرض له المرأة، خصوصاً السيدات اللواتي لديهن تاريخ مرضي، لأن هذا يعني أن الأعراض قد تزيد، وأشارت إلى نقطة مثيرة للغاية، إنه في الفترة الأخيرة تغير المصطلح علمياً من "اكتئاب ما بعد الولادة" إلى "اكتئاب ما حول الولادة"، لأن المدة في الماضي كانت تبدأ من الولادة، لكن بعد الدراسات الأخيرة توصل المتخصصون في الطب النفسي إلى أن فترة الحمل كذلك قد تؤدي إلى الاكتئاب، وليس بعد الولادة فقط.

إذاً من يستطيع التفرقة بين صدمة ما بعد الولادة، واكتئاب ما بعد الولادة؟ الأطباء المتخصصون هم المسؤولون عن هذا التشخيص، ولكن سبل الوصول إليهم ليست بهذه السهولة. ما زالت وصمة اللجوء للطبيب/ة النفسي منتشرة، خاصة وأن هذه الأعراض يمكن اعتبارها مجرد "كآبة نفسية" عادية، وهي حالة تمر بها نسبة كبيرة من الأمهات، وتنتهي أعراضها بعد أسبوعين تقريباً من الولادة، بينما تستمر أعراض كرب الولادة واكتئاب ما بعد الولادة لفترات أطول.

أين المفر؟

في نهاية كتاب "حليب أسود" الذي تناولت فيه التركيبة "إلف شافاق" الفترة التي تلت ولادتها ابنتها الأولى، يسألها زوجها:

"لماذا لم تخبريني، لماذا لم تطلبي المساعدة من الأهل والأصدقاء أو حتى مربية"، فردت عليه قائلة: "ظننت أنني أستطيع ذلك وحدي، ظننت أنني أستطيع هدهدة الطفلة لتنام، أطعمها طعاماً صحياً، وأكتب رواياتي بعدها. لم يدر في ذهني أنني لن أستطيع القيام بهذا كله وحدي. كانت تلك قوتي، وكانت ضعفي أيضاً". (27)

إليف شافاق واحدة من الكاتبات الشهيرات، ميسورة الحال، ومثقفة، لديها زوج محب، وأم كرسّت حياتها لها، وكان متاح لديها كل شبكات الدعم، ولكنها مثل الكثير من الأمهات اللواتي لا يملكن هذه الامتيازات ظنت إنها تستطيع حل مشكلاتها وحدها، لشهور أجلت زيارة الطبيب النفسي على الرغم من عدم جهلها بوجود اضطرابات مثل كرب الولادة أو اكتئاب ما بعد الولادة، آمنت أن في لجوئها للطب النفسي اعترافاً بأنها أضعف من باقي الأمهات، ولا تستحق الأمومة.

اعتقدت إليف مثل كثيرات غيرها أنها محصنة ضد هذه الاضطرابات، تستطيع خوض المعركة وحيدة وتفوز، وهو الأمر الذي يحمل مخاطرة قد تنتهي بأفعال مرعبة مثل إيذاء الأم طفلها على سبيل المثال.

التعامل مع صدمة ما بعد الولادة أمر مرهق، تشعر المرأة أنها لا تجد الطاقة اللازمة للاعتناء بنفسها، ناهيك عن رعاية كائن آخر، لذلك تحتاج هؤلاء النسوة إلى دعم حقيقي وفعال، الأمر الذي تقع مسؤوليته بشكل أساسي على الزوج الذي يحمل لقب أب مثلها هي تحمل لقب أم، وليس عليه فقط رعاية طفله، ولكن أيضاً زوجته التي تمر بمرحلة نفسية وجسدية صعبة.

ما زال هذا النوع من الدعم ليس متوفراً لأغلب النساء،

فأفكار مثل احتياج الأم الجديدة إلى قضاء بعض الوقت خارج المنزل، أو الاهتمام بنظامها الغذائي الخاص، أو القيام ببعض الأنشطة البدنية كلها في عداد الرفاهية.

كُتِبَتْ عَلَيْكَ الْأُمُومَةُ وَهِيَ كُرْهُ لَكُنْ

ريم بن رجب

في تلك المدينة الموصدة أبوابها، أطفال يبكون أمهاتهم. في تلك المدينة الموصدة أبوابها، أمهات يبكين أطفالهن. في تلك المدينة المحاصرة، يُحَلِّقُ طائر الموت فوق المنازل والمهيمات وتسري اللعنات في الأجساد الباردة. في تلك المدينة المحاصرة، مدينة اليتم والفقْد، أشلاء وجثث ودماء وبقايا ذكريات. ألم يعب السماء من الخيانة؟ ألم ترو الأرض عطشها؟ ألم تشتك القبور ازدحامها؟ ألم تملُّ الملائكة من إحصاء الموتى؟

يُطلُّ شبَّاك مكتبي على محلِّ لبيع لوازم الدفن، وتطلُّ شرفة بيتي على مقبرة ومسجد. أرى الأكفان والتوابيت كلَّ يوم تقريباً. حاولتُ مرَّةً رفقة جاري دفن قطعة دهبها سائق مُتهوِّر، لكنَّ حارس المقبرة كشف أمرنا وأتهمنا بممارسة السحر والشعوذة. لم نجد مكاناً لائقاً للدفن فألقيناها في سلَّة الفضلات. تذكَّرتُ أمِّي عندما تغضب مِنِّي وتقول: "سألقي بك في الزباله يا زباله". أعتقد أنَّ مكان القطط الطبيعي هو القمامة التي تتناثر منها كي تكبر وتعيش، فمنها تحيا وإليها تعود. أعتقد أيضاً أنَّ مكاننا الطبيعي هو القمامة فنحن في النهاية فضلات أمهاتنا، نفايات للاكتئاب والأحلام والانتظارات تمَّ تدويرها في شكل أجساد معطوبة توارثت الغبن جيلاً بعد جيل.

عندما تكأ صغاراً شاهدنا الكثير من الرسوم المتحركة الحزينة. لم تكن طفولتنا مبهجة وجلُّ البطلات والأبطال يعامى مشردون أو يعيشون في الملاهي. بكينا كثيراً ونحن نُشاهد قصَّة "سالي" اليتيمة وعذاباتها التي لا تنتهي، ممزقنا ألماً عندما توفي ألفريدو في "عهد الأصدقاء"، تابعنا بحسرة رحلة جودي داخل الميتم

وبحثها المضني عن "صاحب الظل الطويل"، غنينا مع "ريمي"
أناشيد الحنين إلى أمّ شبح، حتى ماوكلي فتي الأدغال عاش
بعيداً عن والديه ورببه الذئب. عالمنا الصغير يضجُّ باليتامى.
رؤوسنا الصغيرة حقل تُزرع فيه بدور الخوف من فقدان.
تنبتُ البدور وتحوّل إلى شجرة زقوم نأكل من ثمارها فتغلي في
بطوننا كغلي الجحيم. قضيتُ طفولتي وأنا أبكي خوفاً من فقدان
أمي وجدتي. كانت جدتي يتيمة وصارت أمي يتيمة مثلها.
لم أفكر يوماً في يتمّ أمي، ربّما لأنها تيمتت في سنّ الخمسين
ولا تتوفر فيها شروط اليتيم التقليدية والمرتبطة في أذهاننا بسنّ
الطفولة. منذ أسبوعين تقريباً شاهدتُ فيديو الفتاة الغزّابة التي
تبكي على أمها القتيلة وتقول: "بعرفها من شعرها". تذكرتُ كيف
كانت أمي تُسرح شعر جدتي المخبّض بالحناء ولأول مرّة أراها
أمامي بكامل الوضوح وقد خلع عنها رداء الأمومة، هي الآن
امرأة يتيمة وليست أمي التي تعتبرنا أهمّ إنجاز في حياتها.

بوئنا غير مُفصلة عن أمومة أمهاتنا وأمومتنا غير مُفصلة عن
بوئنا. نحن قبل كلّ شيء أبناء أحدهم وإحداهنّ. الصفة
الأولى التي نُبعث بها إلى الحياة هي البتوة. نهربُ من الطغيان
الأمومي ونحاول السير في طريق آخر لكننا في النهاية نقع في
مصيدة الاستنساخ فنبتلع أمهاتنا وتحوّل إلى أنصاف آلهة. نحن
صنيعة أمهاتنا، مخلوقاتهن الصغيرة التي يتبجّحن بها. حاولتُ
كثيراً ألا أشبه أمي ولكنني الآن أبحث في دولاها عن
فستان يأسبني وأعيد نفس حركاتها. هربتُ من أمومة أمي نحو
الصداقة، حكيتُ لها أسراري وحدثتها عن خيالاتي ولكن شبح
أمومتها ظلّ يطاردني. مع كلّ يوم يمرّ أزداد يقيناً أنني نسخة
عنها. أمي مثلي تعاني من اضطراب "كُن فيكون". لا يعاظم
شيء على قدرتها. نضرك كثيراً ولا نعرف الصبر والموادة. هذه

البنوة المغلفة بالصدقة والبوح مُرهقة ومُضنية، مثلها مثل البنوة الصدامية. اخترتُ الصداقة بدل الاشتباك. اخترتُ كتم صوتي بدل الصراخ. هي حرب باردة وأبدية لن ينتصر فيها أحد.

يُضاف إلى بنوتنا، أمومتنا التي لم تتحقق بعد. نحن أمهات بالفطرة. أمهات حتى لو قررنا عدم الإيجاب، حتى لو اخترنا أممًا غير معيارية للأمم كان نصبح أمهات لكائنات غير بشرية. كنتُ أمًا لكلب طيلة خمس سنوات ونصف. أمٌ غير شرعية لابن غير شرعي. منذ الإعلان عن طوفان الأقصى تغيرَ العالم وتغيرَ كلُّ شيء من حولنا. بعض صديقاتي اللإيجابيات يفكرن بجدية في الإيجاب لتوريث حقدهن على الأنظمة، والبعض الآخر مُصر على خيار عدم الإيجاب لأن العالم كشف عن وجهه القبيح. وماذا عني أنا؟ كيف أصنّف نفسي؟ أنا لا أحد ولا شيء. لم أحسم خياراتي بعد ولا أحرف لماذا يتوجب عليّ الحسم. عشتُ مُحمّلةً بفعل الخوف من الوحدة ولا أريد الإيجاب. عشتُ مُحمّلةً بفعل الخوف من الوحدة وأريد الإيجاب. عالقة بين ضفتي البنوة والأمومة. أسبح مع التيار وعكسه. وماذا عن الفلسطينيات؟ هل كُتبت عليهن الأمومة وهي كره لمن؟ هل قُدِّر لأرحامهن أن تتحول إلى آلة تصنع أطفالاً سيقتلون عاجلاً أم آجلاً؟ هل تفقد الأمومة معناها النسوي في ظلّ حروب التحرير؟

ماذا لو كنتُ امرأة فلسطينية؟ أعتقد أنني سأنجبُ قبيلة من الأطفال. أربيهم على الحقد. أربيهم على الغضب. أعطيهم كيف يمكن أن يكون أكفانهم ويحفرون قبورهم. أعطيهم كيف يمشون حفاة فوق أرض مغسولة بالدم، كيف يفرسون خناجرهم في أجساد الغزاة والأشرار، كيف يُمسكون المسدس مثلها يمسكون قطعة خبز.

ماذا لو كنت امرأة فلسطينية؟ أعتقد أنني لن أجد قبيلة من الأطفال. سأدرّب أنفي على شم رائحة البارود. سأشرب من دماء الطفلة. سأسرح في البراري حاملة سلاح، باحثة عن عدوي. سأسلخ الجلود وأكل الأجداد مثلها أكلت هند بنت عتبة كبد حمزة. سوف أفقأ عيني الغاشم وأبنت مكانهما رصاصة.

ماذا لو كنت امرأة فلسطينية؟ لكنني لست امرأة فلسطينية ولا أستطيع اقتراض هذا الأمر بكامل الأريحية ومع كل الامتيازات التي أمتلكها. مشاهد الأمهات المفجوعات وهن يودعن فلذات أجداهن ستظلّ محفورة على الجدران، على جدوع الأشجار، على البرلمانات، على قصور الملوك والحكام. ستلقف السماء صرخاتهن اليائسة وتحوّلها إلى إعصار يأتي على الأخضر واليابس. في الوداع الأخير أم تزهرد. في الوداع الأخير أم تحضن جثة فقيدتها. في الوداع الأخير أم تصرخ باكية: "الولاد ماتوا من دون ما ياكلوا". أرض البرتقال الحزين لم ترمو بعد. مثل الغولة تأكل هذه الأرض أولادها ولا تشبع. مثل القطط تأكل هذه الأرض أولادها خوفاً عليهم. من سيرت على أمكاف الأمهات عندما يعين؟ من سيخرجهن من فوهة الغلام؟ لمن سيشتري ملابس العيد؟ لمن سيخبزن الخبز ولن سيغنن أغاني الهددة؟ منحتن اللغة اسماً لم يخترنه: ثكلي وجمعها ثكالي. هن ثكالي الزمن المنقضي والباقي وستظلّ نيران الفقد تستعر في أحشائهن.

أول سورة حفظتها من القرآن بعد الفاتحة كانت سورة المسد. أحببت كثيراً آية "وفي جدها جبلٌ من مسد" وكنت أعتقد أن "الجيد" هو الرحم وأن "المسد" هو تعبير مجازي للجنين. كنت أفسر السورة، وأنا لم أجتاوز الخامسة، كالآتي: "في زمان ما

ومكان ما، امرأة حامل تحمل الحطب فوق كتفها والله غاضب من زوجها الذي لا يساعدها". عندما كبرت فهمت بأن السورة تحدث عن أبي لهب وزوجته الشريفة وما ينتظرهما من عذاب في الجحيم. ما زلت إلى اليوم مصرة على تفسيره الطفولي لأنه الأصدق والأقرب إلى وجداني. الجهد هو الرحم والأجنة حبال ملفوفة حول عنق الأمهات. يقرب الحمل الأمهات من حبل المشنقة، فالموت على بعد خطوات منهن كما الحياة. حبال المشنقة ليست فقط وعداً بالموت والفناء بل هي أيضاً وعدٌ جديد بالحياة، حياة أخرى ممكنة. عندما حوكم سقراط بالإعدام رفض الحرب فكان موته بمثابة انبعاث جديد له. جميع من حوكموا بالإعدام ظلوا محتفظين بأمل خافت وواهن يتحقق معجزة النجاة، وهو ما حصل مع دوستوفسكي الذي صدر بحقه عفو ملكي قبل إعدامه رمياً بالرصاص بدقائق معدودة. بعدها كتب رسالة إلى أخيه عن تلك اللحظة السريالية قائلاً: "الحياة موجودة في داخلنا وليس في العالم الخارجي".

يُقال بأن قبر النساء الحوامل مفتوح طيلة فترة الحمل ويظل مفتوحاً بعد الولادة لمدة أربعين يوماً. تربينا على أن الحمل مرادف للحياة وللوت في آن. يمكن أن تُخطئ الطبيعة في حقنا ونموت في أي لحظة. عندما حملت أمي بعد الأربعين تخيلت جنازتها مئات المرات. مات الجنين في بطنها. مات أخي الذي تمسست لقدمه ولكنني لم أحزن عليه. كان موته بمثابة ناقوس خطر أفرغ أمي، فبعدها قررت وضع قفل على رحمها كي لا تحبل مجدداً وإلى الأبد. لماذا علينا نحن النساء تكبّد كل الخسائر؟ لماذا نحن مطالبات بأن نحمل مسؤولية الإنجاب وما قبله وما بعده؟ لماذا نُفكر في أمومتنا بمعزل عن أبوة الآخرين؟ أمومتنا مرتبطة بينوتنا ومرتبطة أيضاً بأبوة أحدهم ارتباطاً

عضوياً. ثمغذى أمومتنا على بوتما وتعتمدُ في وجودها على أبوة شريكنا. يجب أن تكون تلك الأبوة نداءً لهذه الأمومة، ندأً حقيقياً لا مجرد صورة لامعة وجسد مُنتفخ بهرمونات القوامة والتفوق الجنسي.

قد تبدو أمومتنا مرثيةً وطاغيةً ولكنها هشةٌ وغير مقدّسة مثلما بروج لذلك. صحيح أن الجنة تحت أقدام الأمهات ولكن ما إن تحيد إحداهن عن الصراط المستقيم حتى تُنفى بعيداً خارج أرض الأمومة الطاهرة. يُمكن للأمهات أن يقتلن أطفالهن خوفاً منهم أو عليهم. يُمكن للأمهات ألا يتقبّلن أمومتهم ويدخلن في دوامة لا تنتهي من المشاعر السيئة ويُقررن الانتحار مثلما فعلت سيلفيا بلاث التي دفنت رأسها في فرن المطبخ وماتت. يُمكن للأمهات أن يُمِررن القهر بدل الحب وأن يزرعن اليأس بدل الأمل. يُمكن للأمهات أن يعتزلن الأمومة في شكلها التقليدي، أن يرفضن لعب دور "الأم المضحية" ويخترن أنفسهن، هل نُسَمينَ أناثات أم بطالات؟

كانت الخصوبة مقدّسة وكأ في زمن صهيق آلهة تُقدّم لنا القرابين ويتضرّع لنا البشر، لكننا الآن كائثات نجسة. لم تعد الولادة بركة إلهية، فبعد السقوط صار الإنجاب الأطفال خطيئة كغيرها من الخطايا. أطفال سيحملون فوق أكتافهم إثم آدم وحواء. تكون المرأة في فترة ما بعد الولادة أو النفاس نجسة فلا يتطهّر إلا بعد أن تغتسل في اليوم الأربعين، غير ذلك كلّ ما تمسه نجس إلا حليبها فطاهر نقي لا تشوبه شائبة. بدأت الكنيسة تُطارّد الساحرات لأنهن أبرمن صفقة مع الشيطان وتخلّين عن وظيفتهن الأساسية وهي الإنجاب والرعاية. كلّ امرأة لا تُقدّم نموذج الطاعة المسيحي تُعتبر ساحرة نجسة تستحقّ الحرق. نحن الساحرات النجسات اللاتي مرّفن الحبل

السريّ بأسنانهنّ. خرج من مهبلنا ملايين الأطفال، عمرنا الأرض واليوم نعلن العصيان، فهل نستحقّ الحرق؟

تدور عقارب ساعتنا البيولوجية بسرعة. يسيلُ الزمنُ بين أصابعنا. بمقلّص أعداد بويضاتنا وماذا بعد؟ ما الذي تُريده الطبيعة منّا؟ ما الذي تُريده أمهاتنا منّا؟ يردن أن يصبحن جدّات. لم تعد تكفيهنّ وظيفة الأمومة ويُردن أن يعملن في مؤسسة الجدّات بدوام كامل. أفهمُ رغبةِ أُمِّي في أن تُصبح جدّة. يُحرّكها مللُ التقاعد. تُريدُ حفيذة أو حفيداً يكسر روتين أيامها الثقيلة. أفهمُ رغبةِ أُمِّي جيّدًا وأريدُ أن أكون الفتاة المُطبعة التي تُلبّي جميع رغباتها وتُخفّض لها جناح الدلّ من الرّحمة، ولكنني عاجزة. يقتلني الخوف من أن أمرّر لطفلي القهر بدل الحبّ، الاضطرابات النفسية بدل الرّاحة، الاكتئاب والأفكار السوداء بدل الرّغبة في الحياة. تتمُّ الآلاف من أطفال غرّة وظلّت لهم جدّة أو جد يرعاهم. الفكرة رغم قناعتها مُطمئنة إلى حدّ ما. الجدّات ذاكرة، ودفاء، وامتلاء، وحنان لا ينبض معينه.

في تلك المدينة الموصدة أبوابها، في تلك المدينة المحاصرة، مدينة الهم والفقد، أطفال ييكون أمهاتهم وأمّهات ييكن أطفالهنّ. من سيفتحُ لكلّ هؤلاء القتل أبواب الجنّة وقد سرقت الشياطين مفاتيحها وأخفتها في حفرة من نار؟

الأمومة.. كل شيء خارج السيطرة

نفيسة الصباغ

هل هي خريزة كما يدعون أم محض اختيار شخصي؟ سؤال طالما طرحته على نفسي حول الأمومة، خاصة وأني طالما كرهت وجودي نفسه بالأساس لدرجة جعلتني أعاتب أبي وأكرر طرح سؤالي الذي ظل بلا إجابة: لماذا أنجبنا بينما كان بمقدوره ألا يأتي بأطفال إلى هذه الحياة؟ وكيف لإنسان أن يقرر حياة آخر بينما لا يمكنه ضمان السعادة لذلك الآخر؟ دوماً اعتبرت الحياة عبثاً، وبالتالي إذا لم أولد فلن أتحمل ذلك العبء، ولم أقتنع أبداً بالتبريرات التي تقول إن بالحياة مساحات للفرح والسعادة. أنا ابنة أبي المدللة- لماذا أنجبني أنا وأخواتي وأخوتي؟ وماذا كان سيضربني لو كنت عدماً ولم أولد أبداً؟ بالنسبة لي كان العدم نموذجياً لأن الوجود يحمل تبعاته من الوجد والمسؤوليات والواجبات التي لا تنتهي والتي لا يمكن أن تعادلها لحظات السعادة الاستثنائية.

على الأقل من وجهة نظري الشخصية طالما اعتبرت أن قرار الإنجاب قرار أناني بحث لا يأخذ في الاعتبار مصلحة الكائنات التي تأتي بها إلى الحياة، فأنا شخصياً أتمنى لو لم أوجد بالأساس، وحتى اليوم أوم أبي على وجودي. رغم ذلك أنجبت ولدين امين، وأشعر بالذنب المستمر لقراري بأن آتي بهما إلى هذه الحياة التي أكرهها وأحتقرها.

على الرغم من ذلك ارتكبت نفس الخطأ بأنانية شديدة وأنجبت طفلين امين وأنا على وعي كامل بأنني أتخذ قرار الإنجاب لأسباب أنانية مطلقة، كي لا أبقى وحيدة إذا ما كبرت في السن واحتجت أشخاصاً بجانبني لمساندتي. كثيراً ما

اعتذرت لابني لأنني قررت إجابتهما في لحظات أنانية بحتة، ورغم تأكيدهما على سعادتهما للوجود في هذه الحياة إلا أنني أحياناً تراودني الشكوك حول ما إذا كان موقفهما هذا ليس صادقاً تماماً ولكنه فقط مجاملة للأم.

لا يقنعني الحديث عن أن الأمومة هي "غريزة" لدى النساء، وإلا فلماذا لا يمكن اعتبار الأبوة غريزة أيضاً؟ يمكنني الاقتناع نسبياً بوجود رغبة إنسانية جمعية في اللاوعي للإنجاب حفاظاً على الجنس البشري، لكن ليس غريزة "أمومية" بالمفهوم النمطي، وإلا لما شاهدنا أمهات يهجرن أبناءهن ولا يقتلنهم، ونفس الشيء ينطبق على الآباء. المجتمع والثقافة الموروثة هي التي ترسخ دوماً لاعتبار الأمومة غريزة أساسية لدى النساء، وتحاول الاستمرار في الإلقاء بكل عبء الإنجاب والتنشئة عليهن، هي الثقافة نفسها التي ترسخ لكون المرأة التي لا يمكنها أو لا تريد أن تنجب أطفالاً ليست امرأة مكتملة ولا تتمتع بنفس القيمة ونفس الحقوق التي تتمتع بها باقي النساء ممن ألجبن، هي نفسها الثقافة التي تسعى أيضاً لترسيخ أن المرأة التي تنجب ذكوراً أفضل من التي تنجب إناثاً.

لي طريقتي الخاصة بالنظر إلى الأمومة باعتبارها "قراراً" و"مسؤولية". لا أعتبرها غريزة ولا أعتبرها واجباً ينبغي فرضه على النساء، رغم أن الوعي الجمعي البشري الذي شكلته الذكورية على مدى آلاف السنين يحاول إقناعنا بغير ذلك. وعلى الرغم من كون تجارب الأمومة يحكمها سياق اجتماعي عام، إلا أنها غاية في الفردية.. لذا حين أحاول الحديث أرى السياق العام لكن لا أجرؤ ولو للحظة على اعتبار الخبرة الذاتية المستمدة من السياق الشخصي منطلقاً عاماً يمكن من خلاله تعميم استنتاجات ما. لكنني أيضاً أدرك أن في كل

تجربة شخصية ملاح مشتركة مع تجارب أخرى قد لا أحرف صاحباتها ولكن يمكن أن يجدن ملاح من أنفسهن فيها.

في تجربتي الشخصية كانت رحلة الأمومة -وما زالت- سلسلة لا تنتهي من القرارات والمسؤوليات، سواء في حال الأبناء غير البيولوجيين (الأخوة الصغار) أو الأبناء البيولوجيين. تساءلت كثيراً ما إذا كان إحساسي بالحب والمسؤولية عن الإخوة سيختلف عنه مع الطفل الذي ينمو بداخلي لحظة بلحظة وأكاد أفارق الحياة كي يبدأ هو صرخته الأولى، لكن التجربة أثبتت أنه لا يوجد أي اختلاف سواء في مقدار الحب ولا مستوى الشعور بالمسؤولية. فقط كل ما حدث هو تراكم الخبرة بين طفل وآخر حتى إدراك أن رحلة الأمومة أقرب للتعلم بالممارسة والخطأ. فالخبرات السابقة مع الأهل تجعلنا نعرف ما نحب وما لا نحب ونحاول منح أبنائنا -سواء بيولوجيين أو غير بيولوجيين- ما نتمنياه، وتجنبهم الأوجاع التي عشناها. لكن مع كل طفل يكبر بشخصية مختلفة أحياناً نكتشف جوانب أخرى في أنفسنا بينما نكتشفهم وندرك أن ما نراه هو زاوية واحدة، فما نحب قد لا يلائم الأبناء وما نكرهه أو نتألم منه قد يكون مصدر سعادتهم.

الأمومة بقدر ما هي مسؤولية هي أيضاً حوار مستمر مع النفس ومع الآخر/الابن أو الابنة، فلا توجد أبداً أمومة مثالية، فالنموذج الساذج للأم التي تبذل نفسها من أجل الصغار كما يجري تصديره إلينا حتى اليوم ليس حقيقياً ولا إنسانياً ولا واقعياً. على العكس، ذلك النمط الذي يلغي شخصية الأم وحياتها ومشاعرها يضر بالأطفال أيضاً، فيخلق أجيالاً متكالية تنتظر أن يقدم كل شيء لهم دون مقابل.

تساءل إيليان جلاسر في كتابها "الأمومة: مانفيسستو" عن

سبب جعل الأمهات مثاليات، ومع ذلك يُعاملن معاملة سيئة. وتمثل بعض جوانب الصراع الذي تعانيه كثير من الأمهات بين الرغبة في التفرغ لرعاية أطفالها وبين الحاجة إلى العيش في العالم الأوسع وتحقيق الذات والاستقلالية المهنية. ذلك الصراع الذي لم ينشأ بسبب الاحتياجات الحقيقية للطفل، ولكن بسبب الصورة الخيالية للأمم المثالية التي نسجها الخيال الذكوري. صورة تغلق العالم أمام المرأة لمجرد أنها أصبحت أمًا وتمنعها من حقها في الحياة من أجل الأبناء. يمكن تصور حجم المشكلة وكيف أن غالبية النساء لا يملكن رفاهية الجمع بين أنفسهن والمشاركة في رعاية الأطفال، حين نعرف أن تكاليف رعاية الأطفال "ارتفعت ثلاث مرات أسرع من الأجور خلال العقد الماضي، كما أن النساء يشككن ثلثي العاملين ذوي الأجور المنخفضة عند عودتهن للعمل بعد إنباب طفل، كما أنهم يؤدين ما يقرب من 70% من الأعمال المنزلية، مما يضيف عليهن أعباء وأدوارًا أكثر من الرجال".

الحقيقة أن هذا النموذج الذي يعتبره قطاع كبير من المجتمع نموذجًا مثاليًا للأمم هو في الحقيقة نموذج فاشل أيضًا. فبغض النظر سواء تفرغت الأم لتربية الأطفال وأفت ذاتها أو جمعت بين العمل والحياة مع الأمم فكلنا نرتكب أخطاء وأحيانًا أخطاء فادحة حين نعامل مع الأبناء. كلنا أمهات "سيئات". لا يوجد نسق سلوكي إنساني يمكن وصفه بأنه مثالي أو نموذجي، فالأصل في البشرية هو الخطأ والتعلم من الأخطاء، أو كما ترى جلاسر: "الأمومة عمل غير مكتمل للنسوية، وتقديس الأم المثالية يجب أن ينتهي". فالطريقة التي يُطلب بها من النساء أن يكن أمهات مثاليات "ليست طريقة جيدة للعيش، والدليل على ذلك أن تجذر العديد من الصور النمطية الحالية للأمهات

برمز إلى فشلنا في تحسين تجربة الأمومة".

تشعر كثير من الأمهات بالذنب لعدم تمكنهن من الوصول إلى الصورة الخيالية للأم كما يجب أن تكون، لكن الحقيقة المؤكدة أن الأمومة كما الحياة لا تسير على قضبان سكة حديدية بانتظام طوال الوقت، فهي سلسلة متصلة لا تنتهي من التجارب والخبرات تسلمنا كل منها للمرحلة التالية التي قد تكون في أي اتجاه. في الأمومة كما في الحياة عموماً لا شيء "مثالي" ولا شيء "تحت السيطرة" ولعل تلك هي المتعة الحقيقية في الرحلة التي تمنح الأمهات والآباء فرصة للتعلم من الأبناء والانفتاح على حوالم المستقبل بينما ينقلون خبرات الماضي.. هكذا أرى الأمومة والأبوة معاً.

فابعداء من نوع الجنين الذي نتمناه -ورغم التطور العلمي الذي جعل من السهل اختياره- فالغموض والتساؤلات عن نوع وشكل وخصيصة الطفل القادم هو مرحلة مثيرة من الرحلة. كانت غلطتي الأولى الكبرى في هذا الشأن هي أنني -كرد فعل للمجتمع الذي يكره البنات ويميز ضدهن- كنت أتمنى أن أنجب بنتاً وأن أدمع حريتها واختياراتها رغم أنف العالم كله. حين أنجبت صبياً لم أحزن، لكنني كنت مرعوبة من تأثير المجتمع عليه وإيهامه بأنه أعلى مرتبة من النساء أو أن لديه حقوقاً مختلفة عن حقوقهن. الخوف سيطر عليّ لدرجة الهوس الذي لم أدركه حتى عبر ابني عن كراهيته لكونه ولدًا لأنني لا أحب الأولاد باعتبارهم كائنات سيئة وأنانية. كانت تلك هي أول تجربة لمحاولة غرس فكرة المساواة في عقل ابني واكتشفت أنني قلبت الآية وكنت أميز ضد الأولاد في أغلب حواراتي معه. تداركت المشكلة فوراً واعتذرت وظللت خلال السنوات التالية أوضح ما كنت أعني ولماذا كنت أخاف

وكيف أنني كنت أخطئ بشدة في صياغة الرسالة. تمكنت من تدارك الأزمة لكن بعد سنوات. الأهم أنني تعلمت منها أهمية الاعتدال والاعتراف بالخطأ مع الأبناء وكيف أن جانباً مهماً من عملية التربية أننا نربي أيضاً في الوقت نفسه ونخطئ ويجب أن تكون واحدة من أهم النقاط التي نعلمها صراحة مع أبنائنا أننا بشر خطأون، سواء الكبار أو الصغار، وأن المشكلة ليست في ارتكاب الأخطاء ولكن في الإصرار عليها وعدم الاعتدال عنها.

منذ الميلاد وحتى استقلال الأبناء نراجع أنفسنا في كل خطوة ونشك في قراراتنا ونراجعها ونعيد تقييمها. في البداية نفكر في نوعية الطعام المناسب لهم وما الصحيح علمياً وما المتعارف عليه ثقافياً والمتوارث؟ وما الأكثر ملاءمة منه بالنسبة للأبناء، متى يتم الفطام وكيف؟ اختيار الملابس: نوعيتها وألوانها؟ كيف يمكن معرفة ما يفضله الطفل في الألوان قبل أن يتمكن من التعبير عن تفضيلاته؟ كيف يمكن تدريبه على الاختيار الحر المستقل للملابس وألوانه دون تأثير من الأهل أو المجتمع؟ كيف يمكن حمايته من القرارات المختلفة عن السائد كأن يصر الولد على أن يطلي أظفاره باللون الأحمر الذي استخدمه من فترة لأخرى؟ وهل الصواب هو الموافقة فقط أم شرح المعضلة الثقافية التي تعتبر أن التجمل بشكل عام يكون مفضلاً في حالة النساء لكنه مكروهاً في حالة الرجال؟ كيف يمكن أن ندفع الأبناء للقراءة والتساؤل حول كل شيء؟ وحين تبدأ التساؤلات كيف نجيب على كل الأسئلة الوجودية التي تنفجر في وجوهنا كالتنايل بطريقة مفهومة ومنطقية وعلمية وصادقة ومناسبة لعمر الطفل أيضاً؟

من طفل للتالي نعلم شيئاً جديدة من أجل رحلة أسهل

بالنسبة للأم وبالنسبة للأبناء، ولا تكرر الأخطاء، لكننا دومًا نرتكب أخطاء جديدة. كان الهاجس الأكبر لديّ -وما زال- هو ألا نعيد إعاज النماذج السائدة في المجتمع من النساء والرجال الذين يعتبرون نوع الجنس سببًا للتمييز بين الأدوار الحياتية. فكنت حريصة على أن يشارك أخي الصغير ثم أبنائي في المهام المنزلية منذ عمر العامين أو الثلاثة، فتكون المهام الأولى هي دائمًا وأبدًا ترتيب ألعابهم وإعادة الأشياء التي حركوها إلى أماكنها. لكن المجتمع يأبى أن تمر تلك التجربة بسهولة، فأخي كان دائمًا يواجه التساؤلات الساخرة حول كونه أختًا وحيدًا لأربع بنات، ويدخل المطبخ بنفسه ليصنع الشاي أو يغسل الأطباق. كنت أرد بعنف على تلك التساؤلات الغبية لكن بداخلي كان الرعب يتزايد من سؤال يتردد بداخلي دون إجابة: إلى متى سيتحمل أخي تلك السخافات قبل أن يستعيد مميزاته غير المستحقة كذكر في مجتمع شرقي؟ بدأت الطمأنينة تتسلل إلى نفسي فقط حين وجدته يرد على كل التساؤلات السخيفة بهدوء معلناً أنه لا يجب أن يعتمد على أخواته، وأن عليه تعلم كل شيء ليتمكن الاعتماد على نفسه في كل تفاصيل الحياة، لم ينزلق نحو هاوية الاستكانة إلى استغلال الأخوات ثم استغلال الزوجة من أجل تسهيل حياته.

مع أختي الصغرى كان التحدي هو العكس، فكيف يمكنني تعليمها القيام بكل المهام المنزلية ومنعها في نفس الوقت من الانزلاق إلى الاقتناع بأن المنزل هو حدودها، أو له أهمية تفوق الحياة خارجه؟ كيف يمكن أن أطرح دومًا عليها أنها قادرة على الاختيار دون حدود أو قيود، وفي الوقت نفسه عليها تعلم أساسيات الحياة كالطهي والتنظيف والغسيل، لكن من أجل نفسها، كي يمكنها في أي لحظة الانطلاق إلى أي مكان وأي

حياة تريدها دون الاحتياج إلى مساعدة؟ التحدي هنا كان أسهل. كنت قد واجهت مجتمعي المحلي مرة بالتزاع حربي في الاختيار والحركة والزبي والعمل والسفر والحب وبالتالي لم يكن أحد يتوقع عكس ذلك من أخي/ابنتي. ولم أكن أخشى من أن ترد هي عن تلك الحرية باعتبارها مكاسب إضافية، بعكس الحال مع أخي الذي كنت بطريقي في التربية أدفعه للتنازل عن بعض مكتسبات الذكور التي أراها غير عادلة.

مع أولادي واجهت نفس العضلات، حيث المجتمع والمدرسة والأصدقاء وشيخ الجامع كلهم يعارضون دفي للأولاد كي يشاركوا في تنظيف البيت وتجهيز أنفسهم للذهاب إلى المدرسة بمفردهم دون أن أساعدهم، ولاحقاً في الطبخ والغسيل والذهاب إلى السوق. مع كل خطوة تحد جديد وشخص آخر يطرح مضافات يعود بها الأولاد إلى المنزل ويطرحونها للتحليل والتساؤل عن أسباب الاختلاف بيني وبين أمهات كل أصدقائهم، وبيننا وبين غالبية الأمهات في العائلة. كثيراً ما كنت أواجه الاتهام بالقسوة وبانعدام الأمومة والإنسانية. لكن وبعد قرابة ربع قرن أشعر بالسعادة لأن كثيرات وكثيرون ممن أسمعوني تلك الاتهامات عادوا ليؤكدوا أنني كنت على صواب، وأن طريقي أفضل، ليس فقط بالنسبة لي، ولكن أيضاً أفضل لبناء شخصية قوية ومستقلة لدى الأبناء.

لم أشعر يوماً بأنني أم متميزة، ولكن دوماً كنت أحاول قدر طاقتي وأنا على قناعة تامة بأن أقصى ما يمكن للإنسان فعله هو بذل الجهد والمحاولة. خلال رحلة الأمومة/الحياة ترسخت قناعتي بأن الأخطاء جزء أساسي من الرحلة ومن التعلم والنمو، والاعتراف بها والاعتذار عنها هو ما يمنع الوقوع

ففي مرة أخرى. والأهم من كل شيء إدراك أن كل شيء خارج قدرات الإنسان والأمهات على السيطرة، فلا أحد يمكنه السيطرة على كل شيء طوال الوقت، فما بالك بأشخاص آخرين مستقلين يكبرون ليصنعوا عواملهم ودوايرهم المختلفة والبعيدة عن هواننا ودوايرنا. كيف يمكن لأي شخص ادعاء السيطرة أو حتى السعي لتحقيقها؟

أقل من الأمومة.. أكثر من الوحدة

مي عامر

إنه الوقت الأمثل للبضي في كتابة المقال، بينما ينشغل ابني لثلاث ساعات في جلسة تعلم التمثيل والفنون الأدائية، ستقتطع جلسة الكتابة في المنتصف حين يخرج في "البريك"، ولكن علي العودة بنفس التركيز عند النقطة التي توقفت عندها لاستكمال الكتابة، أوقات التمارين والورش الفنية أصبحت لي هي ال Me Time، حسب كتب التربية الحديثة فإن علي الأمهات الاهتمام بإيجاد مساحة وقت لمن. لا أعلم كيف أجد وقتاً لي بعد إتمام ثماني ساعات عمل وساعتين أعمال منزلية وساعتين أعمال تشاركية مع ابني وثمانية أخرى في النوم، إذن فلنحوّل ساعات الانتظار إلى وقت لي رغم وجودي في مكان غير مريح، ورغم تشويش الأطفال حولي، والقهوة الرديئة التي يقدمها المكان، ونظرات الأمهات لي علي أنني كائن غريب لا يشاركهن جلساتهن النقاشية حول الدروس والمدرسة ووصفات الطعام والشكوى من ارتفاع الأسعار.

لحظة.. سأشعل سيجارة يساعدني دخانها علي اعتزال المكان والاستغراق في الكتابة، وسأحاول تذكر أول مرة تلفقت فيها دمية علي شكل عروسة لألعب بها، التذكر صعب، لا أرى نفسي سوى بنت وحيدة تحيطها عشرات العرائس، فقد كنت ابنة وحفيدة وحيدة محفوفة بالحب ومحفوظة بالهدايا التي كان أغلبها عرائس شقراء لديها قدرات خاصة، كأن تقول بابا وماما أو تأكل وتبول، كانت متطورة بالنسبة لعرائس صديقاتي كونها آتية من محلات ألعاب مستوردة في مصر أو جاءت لي من الخليج مع أقاربي وأصدقاء العائلة.

كانت جدتي تقول لي: "انتي حنينة على حرايسك لكن انتي خلفتك كلها هتكون ولاد". فعلاً أنجبت ولدن وطلقت من والديهما، قررت الاحتفاظ بالأكبر وتولية مهمة تربية الآخر لوالده. ولدت ابني الأكبر في عمر الـ 25 عاماً، كنت شغوفة بالأمومة ولديّ رهبة شديدة فيها، كانت معلوماتي عن الأمومة مستمدة من تربيتي لحرايسي، فوجدتها سهلة.

حمل؟ كل النساء يحملن.

رضاعة؟ النساء جميلات في مشاهد إرضاع أبنائهن في اللوحات الفنية وفي الأفلام الأجنبية.

إطعام ورعاية؟ أنا بالأصل أطبخ يومياً وكنت أحب اللعب مع حرايسي وأبناء صديقاتي.

تربية؟ أنا درست العلوم التربوية لمدة عام وسجلت في أجنحة منذ المراهقة كل ما أحببته في علاقتي بأمي وكل ما كرهته بها.

إذن أنا جاهزة للحمل ولاجتياز تجربة الأمومة بنجاح ساحق.. هكذا فكرت.

نساء أسرتي الممتدة في الفيوم يسكنن في بيوت قريبة، أنجبن ما بين ثلاثة أو أربعة أبناء وبنات، جميعهن موظفات يأتين بكل الأطفال في الصباح الباكر لجدتي، تتولى هي مسؤولية الرعاية والإطعام واللعب وفك الاشتباكات في النهار، يعدن جميعاً في الظهيرة يأخذن الأطفال بعد مشادات، حيث أنهم يردن البقاء في بيت الجددة الطيبة.

ولدت ابني في الفيوم وتحركت إلى بيتي في القاهرة بعد أسبوعين، لأجد نفسي مع طفلي وحدي، كأنني أراه لأول

مرة بعد اختفاء مساعدات أمي وأختي اللتين سهلنا مهمة استقباله في الأيام الأولى. إنها مهمات كثيرة: أوقات الرضاعة، أوقات تغيير الحفاض، أوقات النوم، فك شفرات البكاء المستمر غير المسبب، كدت أجن.

تذكرت وقتها ما قرأته في كتاب "أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة" للإنجلز، حين أشار إلى أن نمط التربية الجماعية في الأسر الممتدة أسهل على الأمهات وأكثر إفادة للأبناء من نموذج التربية الفردي في الأسرة النووية في المجتمعات الحديثة.

بعد أيام من الروتين اليومي المتكرر، وابتلاع الغصّة، والشعور بالوحدة والحيرة والندم، كما تقول ليليان داوود، في مقال لها. لم أستطع أن أكون أمًا مبتهجة بغير الحفاضات، أردت العودة لنفسني التي أعرفها. كنت أعمل في منظمة نسوية حقوقية، شعرت بحاجة ماسة لقطع الإجازة والرجوع لزملاء وزميلات العمل، تفهمت مديرة المؤسسة النسوية الوضع ووافقت على العودة بصحبة ابني، كما وفرت لي مربية تساعدني على الاهتمام به خلال عملي، ودفعت راتبها، الذي كان ثلث مرتبي، لمدة ثلاثة أشهر. زميلاتي وزملائي والمربية احتضنوا ابني. كان الأمر يسيراً، حتى أتم عامه الأول وبدأت رحلت البحث عن حضانة.

بمبلغ وصل لثلاثي مرتبي (كان وقتها 2000 ج في عام 2013) لم أجد حضانات سوى الموجودة داخل شقق مغلقة ليس فيها غير مصدر واحد للتهوية، يتراص فيها عشرات الأطفال مع مدرسات وعاملات قلائل مؤهلاتهن الوحيدة أنهن من سكان الحي، غير دراسات للتربية ولا الرعاية، يفانحن بأن الأطفال يعابن التلفزيون ويغنون معه ويعكفون العربية والإنجليزية بطريقة فضضيات الكارتون في قنوات طيور

الجنة و mbc3. كان ابني مريضاً بحساسية الصدر، ونصحت الطيبة ببقائه في المنزل معي لمدة ثلاث سنوات، أو إرساله حضانة لا يتجاوز عدد الأطفال في فصلها عن الثمانية، وبها حديقة يقضي فيها ساعتين إلى ثلاث ساعات في الشمس الآمنة. كان سعر الالتحاق بالحضانة التي وجدت بها هذه الشروط يساوي قيمة مرتبي كله. ساعتها فضلت العمل عن البقاء في المنزل، وكنت ألتقي مرتبي في طرف مغلق باليمن، لأعطيه لمسؤولي الحضانة باليسار. تكفل أبو ابني بالإيجار وتوفير الطعام الأساسي، واضطرت أنا للبحث عن عمل إضافي من المنزل كتصحيح لغة عربية أو تقديم استشارات في مجالي، فضلاً عن عملي في استكمال أطروحة الماجستير. كانت فترة شديدة الصعوبة.

لحظة.. ابني خرج في وقت الراحة، سيأتي مع أصدقائه للحديث معي.. سأقطع الكتابة وأعود بعد قليل. لا أستطيع الاسترسال فيما كنت أريد قوله، لكن ما رأيكم في التفكير في اسم المقال.

أود أن أقول إنني أقل من النموذج المثالي الذي يطرحه المجتمع على النساء، ولكنني أشعر أنني قادرة على مشاركة طفل حياتي.. أكثر من الأمومة أقل من ال؟؟ لا أدري، لا تسعفني اللغة بكلمة عكس الأمومة. المتزوجة يقابلها عزباء، لكن الأم لا تقابلها كلمة سوى عقيم، العقم عيب بيولوجي. واو، العربية ليس بها كلمة تعبر عن المرأة التي تختار ألا تكون أم.

اللغة ابنة المجتمع. مجتمعاتنا الأبوية لا تفهم النساء إلا إذا كن أمهات، يصفون العقيم بالأرض البور، يتخيلون أن الأمومة غريزية أو كما تقول زو إيرلر في مقالتها "كل امرأة أم": "أن العالم يميل إلى ربط الأمومة بالأنوثة"، حتى أن شهرين أبو

النجاح، النسوية والأكاديمية، تجد أن اختيارها عدم الإنجاب يجعلها تقود معركة وجود، مع مجتمع ينفي وجودها إن لم تنجب أو لديها تمبرر بيولوجي لذلك حسب ما طرحته في مقال بعنوان "أنا لست أم.. إذن أنا غير موجودة".

إن وصف العقيم بالأرض البور وتشبيه الأم كثيراً بالشجرة المثمرة أو الأرض النابتة، أو حق الوطن، وتكوين صورة مثالية عن الأمومة الصابرة المتهتدة المضحية والمتفانية، مستمد من المنطق الوظيفي لدور الأمهات، المتمثل في إعادة إنتاج الأفراد (قوة العمل). تقول نانسي فريزر وتشينزيا أروتزا وتي باتارشاريا في كتابهن "نسوية من أجل 99%"، وتحديدًا في الأطروحة الخامسة من الكتاب، "إن خطورة الرأسمالية الأساسية هي فصل عملية إنتاج البشر عن عملية صنع الأرباح وتكليف النساء بها دون مقابل"، هذا يعني أن النظام الرأسمالي الذي نحيا فيه لا يرى الأمومة علاقة إنسانية ولا يبالي بكم الجهود الذي تبذره الأمهات في أمومتهم مهما كبر، ولكنه مهتم بكفاءة الإنتاج، أي إنجاب أطفال يجيدون لغتين أو ثلاث، ربما أكثر، مدججين في مدارس تعلمهم الانضباط والطاعة لمدة ثماني ساعات يوميًا، قادرين على اكتشاف مهاراتهم، يعلقون العلوم والمهارات في مراكز ثقافية، هؤلاء فقط هم المنافسون في سوق العمل، أما أبناء الفقراء أو الكسالى فسيحكم عليهم بالبطالة أو الاشتغال بالأعمال المتدنية في المجتمع.

هذا ما يجعل وصولي لحضانة مناسبة لابني والتكفل بالأدوار الرعائية والاقتصادية ليس آخر المطاف، ولكن أول رحلة اكتشاف مواهبه وقدراته، خمس ألعاب رياضية جربها حتى الآن وثلاثة فنون، اصططحته فيها في كل الأوقات وانعظرت له لحن الانتهاء، طورت قراءاتي عن كرة القدم التي أحبها،

أجدت التعامل مع برامج مراقبة المواقع التي يعرض لها على الإنترنت، أحاول إتقان نطق الإنجليزية بالطريقة التي يعلمها في المدرسة، وأقرأ كثيراً وكثيراً عن المراهقة، وأسأل الصديقات اللاتي مررن بالتجربة.

هذه هي اللعبة التي تلعبها معي الرأسمالية، ورغم إدراكي لها، إلا أنني لا أستطيع الفرار منها. في مقال بعنوان الرأسمالية والأمومة، يبدأ الأمر بعقديس الأمومة مع التهوين من متاعب الحمل والولادة، وإقناع الأمهات بضرورة القدرة على التحكم في نوم الأطفال وطعامهم وسلوكياتهم مع إمكانية التوفيق بين الوظيفة والطموح والأسرة وتربية الأطفال دون إرهاق. مقارنتك بالأمهات الأخريات، وإشعارك بالتقصير، والحاجة لمنتجات عناية الطفل وتطوير مهاراته لسد التقصير، إلحاقه بأعلى المدارس ومراكز تعليم الفنون حتى يحقق إنجازات مبكرة ويصبح عبقرياً، إشعارك بالفشل والحيرة لأنه لا يوجد وضوح لمؤشرات نجاح ابنك، الوصول لحقيقة أن الثريات فقط هن القادرات على الاستهلاك الأكبر، هن من يستطعن تربية أبنائهم تربية سوية وهادئة، ومن ثم تجدين نفسك مجبرة على الاستغراق الكامل في العمل من أجل تحقيق احتياجات ابنك ودعم استكشافه وتطوير مهاراته.

هذا الخطاب يتسع حدته بفعل التكنولوجيا، فلم تعد تصلك هذه النداءات من التلفزيون أو من النساء المحيطة بك فقط، ولكنها تتوالى مئات المرات يومياً عبر كل مواقع تواصلك الاجتماعي، صور لأمهات مثاليات مع أطفالهن السعداء على فيسبوك، عشرات النصائح التربوية، رسائل بريدية قد تصلك بأهم الأبحاث التربوية وتماذجها فقط لأن الخوارزميات عرفت أن لديك أطفالاً. تقول الكاتبة سارة يوسف في مقالها "لماذا

أصبحت الأمم أصعب من أي وقت مضى؟ أن "زيادة الوعي تعنى بالضرورة زيادة المسؤوليات". إن التربية كفرع من العلوم الإنسانية تطور بسرعة لافتة، وتجعل ما يصلنا من معلومات اليوم ربما يصلنا ما هو مناقض له غداً مما يجعلنا كأهات في حيرة دائمة، نعاقب أم لا؟ تركهم في أسرته أم نفضلهم منذ الولادة، نقدم الحلوى كثواب أم نقدم الألعاب أم نضع النقاط؟ كيف لنا أن نتحكم في الغضب أمامهم؟ نكتب الخوف والعجز عن أعينهم؟ نتجاوز تجارب الإساءة التي تعرضنا لها في تربيتنا؟ ربما نظنون أن الأدوار قد انتهت هنا ولكنها لم تنته.. سأريكم أكبر الأشباح.. الخوف.

أربي ابني تربية حرة، أدمم قراره واستكشافاته، ولكنني ألزمه بحمل مسؤولية نفسه بالتدرج. يغسل صحنه، يظف هجرته، يذهب لتدريباته القريبة الآمنة وحده، يحترم صديقاه ويعاملهن باحترام. لكنها قيم نسوية يعارض مع مجتمعنا الأبوي الذي يرمي عليه بالامتيازات لجرد أنه ذكر أشقر وجميل. هل يرى أمومي كافية؟ وهل يستغني عن امتيازاته ويخاز للعدالة؟ لا أعلم أبداً. ربما يكتب عني يوماً ما أنني لم أعد "حلة محشي" واحدة، وأنه كان يحتاج السفر لجدته بالفيرم حتى يأكل المحشي. ربما أيضاً يفاجئني بقصة حب مع رفيقة محافظة، أو بفضل الزواج من امرأة لا تعمل، تشاركني أسلتي الكاتبة عبير قبلي في مقالها "هل يصبح ابني ذكوري؟" وتقول: "لكني أعلم علم اليقين أن هناك عالماً خارجياً سيفسد الكثير مما أربيه عليه، ولا أعني بهذا العالم العربي فقط، وأنني أريده أن يخرج للحياة ويعلم منها كما تعلمت أنا منها. وأعرف أنني سأسقط أحياناً وأرتكب الكثير من الأخطاء. وأعرف أنه قد يكبر ويتمرّد وقد لا يعجبه أسلوب تربيتنا. هذه معركة قادمة لست جاهزة لها

الشبح العملاق يستمد قواه من الخطاب الذي يحاسب الأممات على أفعال أبنائهن، تقول عنه الكاتبة زهرة فرج في مقالها "نريد أن نكون أممات عاديات": "الأمومة استعباد مقدس حيث لا يُسْمَح لنا بالفشل"، هذا الخطاب الملعون، سواء أتى من رواد التربية الإيجابية أو حتى من المؤسسات التي تخطى عن أدوارها وتلقياها على عاتقي في جلسات اجتماع الآباء التي أحضرها وحدي، أو من الأممات المجاورات، يفسد علاقتي بابني وبمحاضري ومستقبلي، لا يساعدني على ابتلاع الشبح إلا مقابلة صديقتين، الأولى تحبني رغم الاختلاف الأيديولوجي الكبير، فهي ملتزمة دينياً، تقول لي إن الإمام علي بن أبي طالب قال: "لا تعلموا أبناءكم على عاداتكم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم"، أما صديقتي التي تشبهني في نمط حياتها وأفكارها تقول لي، استلهاما من خليل جبران، "دول مش عيالنا دول ولاد الحياة.. رحلتهم بقي مالناش دعوة".

أما المقال الوحيد الذي يهدئ من روحي هو للكاتبة الهولندية أنيا مولينبيلت بعنوان "الطفل كشهادة"، وسأقتبس منها التالي: "من جهة نحن لسنا الوحيدات اللواتي يؤثرن على الأطفال، فهم محاطون بالأمثلة في كل مكان وحساسون لما يرونه أكثر مما نقول لهم. يمكننا القول للصبي إن الرجل الحقيقي يكوي قميصه بنفسه، ولكن كم رجلا في محيطه يقوم بذلك فعلاً؟ ومن جهة ثانية، بمقدورنا أن نقدم مثالا للأثوية يختلف عن الأمومة التقليدية، ولكننا بتنا ندرك أن ذلك سوف يضعنا أمام معضلة: حين نحاول أن نكون أمثلة للمرأة العصرية القادرة على دمج العمل والأمومة، فمن المحتمل أن يرى امرأة متوترة تروح وتجيء أمامه، فيتمنى كردة فعل أن تكون غير مضطرات

للعمل. أما حين نكرس أنفسنا للأمم - وحتى ولو فعلنا،
من منا قادرة على تلبية كل احتياجات الطفل؟ - سوف لن
نتمكن من تطوير أنفسنا ولا تقديم الأمثلة التي بودنا أن يربى
طفلنا عليها. وحتى لو لمجحنا أن نكون ذوات طاقة لا حدود
لها وأهتناً فنون السرعة، لن نقدم نموذجاً مختلفاً عن الرجولة.
قد نقرأ لأطفالنا قبل النوم لائحة مواصفات الرجل المثالي كما
صاغتها إتهكه فيدا، إلا أن تأثير الرجال اللطفاء عليهم أكبر من
أي لائحة. طبعاً لا بد أن نلقى بعض العزاء فيما اكتشفته
العالمتين شهريل بينارد وإيديت شلافر من خلال حواراتهما مع
كثير من الرجال، وهو أن أولاد النساء التقليديات أقل تقديراً
لأمهاتهم من أولاد النساء المتحررات. إذ تميل الأم التقليدية
المتفانية في خدمة أطفالها إلى إبراز كشف الحساب في وقت
لاحق، والمطالبة بالامتثال، ما يسبب بالشعور بالذنب. أما
الأمهات العصريات والديناميات والمبادرات، فصحيح أنهن
كن أقل تواجداً من أجل الأطفال، إلا أنهن تركنهم يصبحون
ما يشاؤون، ويقين نساء ممتعات أثناء الحديث حتى في سن
متأخرة. أولاد هؤلاء الأمهات يمشون لاحقاً عن صديقة تملك
تلك المواصفات، كما أن كثيراً من الرجال العصريين يقولون
إنهم يفضلون المرأة الندية التي تشجعهم ولها آراؤها واهتماماتها
المستقلة، على المرأة التي تعتمد عليهم ولا تكف عن السؤال
إلى أين أنت ذاهب ومتى تعود. ولكن ثمة شيئاً مريباً: فالرجال
الذين تربوا على أمثلة أنموية مختلفة لم يحصلوا معها على أمثلة
ذكورية يتماهون بها، ولا على مثال لعلاقة زوجية مبنية على
الشراكة الحقيقية. لذلك يحافظون على الصورة الوحيدة للعلاقة
الناجحة التي تقوم بين رجل وامرأة، وليس بين شخصين بالغين،
لا، فالعلاقة المثالية بين الرجل والمرأة تكون بين الأم وابنها.

أمي قادرة على كل شيء، هكذا قال ابني في حوار أجري معه،
وكم كنت نفورة بذلك".

أعتقد أن كسر الشعور بالذنب والإحساس بالتقصير
الناجم عن الخروج عن نموذج أمومة المتن على حد تعبير إيمان
مرسال في كتابها "أن تلتئم ... عن الأمومة وأشباحها" إلى
أمومة الهامش، يتطلب مهارة خاصة في التقاط نفس عميق
يستطيع إيقاف سيل تنبؤات أمي وبما أن الدراسات التربوية
ونصائح الصديقات والأطباء النفسيين، لسماع صوتنا الداخلي
حول حدود أمومتنا ومتطلباتنا من أبنائنا، لعمل أمومة فريدة
وارتجالية والسماح لها ولنا بحرية الخطأ وربما الفشل كسبيل
حتمي للتعلم.

ابني.. أحبك ونفورة بك ومستمعة برحلتنا.

أنا قادمة.. انتظروني ولا تواصلوا السير من

دوني

هنده الشناوي

بعد عشرين ساعة من المخاض في مستشفى بألمانيا، طلبت مني القابلة أن أجلس على طاولة الولادة. لقد حان الوقت، جاءت اللحظة التي انتظرتها منذ أشهر، لحظة الحقيقة والخلاص. ساعدتني الممرضات وزوجي على الصعود والجلوس على المنضدة. كنت مستعدة ولكن لم أكن واثقة من نفسي. الارتباك والخوف اختلطا بعزيمة أن أنهي هذه المسألة على الفور وبأسرع طريقة ممكنة. كنت منهكة بالكامل. آلام المخاض لا يمكن وصفها بقدر تعقيدها وهول وقعها على الجسد وعلى النفسية. كنت قد قضيت ما يقارب اليوم بين الانقباضات والتشنجات ورغبة ملحة في الإغماء وإحساس بالغضب أيضا آلت إليه أعضائي وجسدي من الرأس إلى أخمص القدمين.

في تلك اللحظة بالذات وأنا أحاول اتباع تعاليم القابلة التي كانت تحدثني بالإنجليزية، كنت أفكر في أمي وفي غرابة الموقف الذي أعيشه الآن. أمي تعمل قابلة واستقبلت بيديها عشرات الأطفال، ولكنني الآن بعيدة عنها مئات الكيلومترات، وألد طفلي ولادة طبيعية على يدي قابلة ألمانية بيضاء، رغم إصرارها على الولادة القيصرية الآمن في نظرها، والذي كان خيارها في إنجابي وإخوتي. كنت أنظر لنفسي من فوق وكأني في حلم أو كأن روحي انقسمت لنصفين، نصف فوق المنضدة يحارب من أجل ولادة جديدة ونصف آخر يشاهد ما يحدث ويفكر في الماضي ويحاول أن يسجل اللحظة.

كيف انتهى بي المطاف هنا؟ تحدثني القابلة باللغة الإنجليزية وأنا ألد؟ أنا بنت زينب وحمادي ألد في مستشفى منظم ونظيف ويقولون لي "بوش هاردر بلينز". يخيل إلي لبضع ثوانٍ أنني لست في المكان الصحيح، ومن ثم أجيب نفسي بسرعة: "لقد حاربت كفاية من أجل هذه الولادة الجديدة، ومن أجل أن تكوني أبعد ما يكون عنها وعنهم جميعاً".

تطلبُ مني القابلة أن أدفع وكأنني سأقضي حاجتي، وتحفزني على الصراخ. لم أكن بحاجة لتشجيعها، فقد كان الألم كفيلاً كي أطلق حنجرتي بصرخات شقت صمت المستشفى لنصفين، وانتهكت وجل وحرمة القديس الذي بناه منذ أكثر من قرن. صراخ قوي ومدوّ وغازب لا يكبّعه جراح الحشمة ولا تهم الجنون ولا عتاب المسلمين والواعظين. تذكرت كم كنت أصرخ بأعلى صوتي في المظاهرات في تونس، ولكن لا وجه للمقارنة، فالطبقات الصوتية التي اكتشفتها في حلقي آنذاك لم يكن لدي أدنى علم بها، كانت دائماً هنا تريد أن تتحرر وتخرج. كانت دائماً في حلقي معلقة وتنتظر الزمان والقرار لتنتقل باندفاع إلى الأعلى. الصراخ الغاضب هو سر استمرار الطبيعة الذي يضمن تواصل البشرية. لو لم تصرخ أمهاتنا عند ولادتنا وقبلها وبعدها فن المرشح أن نكون قد متنا، نحن أطفال المهشاشة الآتون من تحت أنقاض العنف والفقر والبنيات المهترئة التي ولدنا فيها تحت الضغط وبعمليات قيصرية سريعة وتحت ضرب القابلات الغاضبات أكثر من أمهاتنا.

صمت حنجرتي عن الصياح وهدأ الغضب وتدرجت دموعي مع تدرج ابني من بين ساقي. مرة أخرى، أحس وكأنني أشاهدني وأشاهد الموقف من فوق. كان المشهد أنيقاً ومرتباً ورومانسياً كما في الأفلام. الكل يتسم في ديكور نظيف

وعصري للغاية. لوحة زيتية جميلة لفنان موهوب معلقة أمامي
ومزهرية لم ألاحظها طيلة اليوم. ثلاث ممرضات شقراوات
يتسمن ويشغلن في نفس الوقت مع القابلة وهي تستعد
لاستقبال الجنين بين يديها وكأنه كأس عالمية فازت بها للتو.
الطبيبة التي لم تباشرني ولكنها مجبرة على الهجيء لإضفاء شرعية
علمية على كل ما يحدث. يشد زوجي المبعثر من هول الفرحة
والفخر على يدي ويلزم الصمت. المشهد متناسق والجميع مشدوه
وفي كامل التركيز.

خلال ثوانٍ سكت غضبي وانتقل لحنجرة ابني الصغيرة التي
لم تعرف بعد أي قيود أو قواعد. في تلك اللحظة تلوّن الديكور
"الأبيض" بكلمات لم أعرف أنني كنت قادرة على قولها كاملة
وبالترتيب الذي بقي في ذهني. كلمات وضعتها أمي على شفطي:
"يا روعي، يا روح ماما. ما تبكيش. إيجا لماما. سملة على
ولدي. يا روح أمك"، قلتها وأنا أمد يدي لأحضن ابني لأول
مرة في حياتنا ولأحضن أمي مرة أخرى.

الأيام الأولى بعد الولادة مليئة برائحة قديمة تشبه الذكريات،
هناك أحاسيس نعرفها ولا يمكننا وصفها بالدقة المطلوبة، تلبسنا
وتلتصق بنا وكأنها عطر وتكبر شيئاً فشيئاً فتصبح حقيقية حتى
أنه يمكننا لمسها في لحظات قصيرة أو يمكننا رؤيتها أو حتى
سماعها خلال أوقات مباحة تماماً. في المستشفى، كانت هناك
رائحة ملتصقة بجسمي منذ اليوم الثاني للولادة، لم أسأل أحداً
عنها ولا حتى زوجي لأنني الوحيدة القادرة على شمها. لم تكن
أبداً رائحة الأدوية والمعقمات ولا رائحة الحليب ولا رائحة
الرضيع المميزة، لم تكن أيضاً رائحة أمي ولكنها كانت تشبه
شيئاً منها وتوحي بوجودها. كانت الرائحة ناطقة ولها لغة أفهمها
بكل سهولة وهي تهمس في أذني بصوت مألوف،

ربما هو صوتي الداخلي ولكنه صوت قديم ومكتوم، ربما هو صوتي من عمر آخر. لم يكن صوتي هذا يحدثني كالعادة، كان يروي قصصاً جديدة أو قديمة خيل لي أنني نسيته. خطت الرائحة هرفتي بوشاح أرجواني وجعلت المكان يبدو مألوفاً وكأنني كنت أعيش في غرفة المستشفى منذ سنين. الرائحة وصوتي وملبس شعري الذي كان رطباً أكثر من العادة بفعل الهرمونات، ووجهي في المرآة الذي أصبح يشبه وجه أمي في ذاكرتي، كلهم أجمعوا على شيء لم أجرؤ حتى الآن على الاعتراف به؛ أمومتنا مطبوعة بأماننا شئنا أم أبنائنا، نحاول جاهدات أن نكون مختلفات وأن نتحرر من ظلي الأم ولكننا نقع دائماً في الفخ، سواء كانت أمومة حاضرة وخانقة أو أمومة غائبة وصامتة، سواء اخترنا أن نلغيها أو نكون مجبرات على تحمل غيابها. في كل الحالات، نستحضر أبعاد الأحاسيس التي جمعتنا بأماننا ونستحضر العادات واللغة والخوف والغضب الذي ورثناه جينياً عنهن.

حتى على بعد آلاف الكيلومترات، لم يكن باستطاعتي أن أبعدها عني. رغم مجهودي المتواصل لترتيب حياتي كأم عصرية تأكل الصحي وتمشي لساعات يومياً وتسند ظهرها على زوج حنون ومتفهم، كنت أواصل رؤيتها في المرآة وفي وجهي. كانت أمي جالسة على جانب السرير من جهة النافذة، تحاول ترتيب الأشياء في رأسي كما تفعل دائماً رغم صدي لها. جعلتني أتعهد الحديث بالعربية إلى جانب الإنجليزية لكي أترجم لها ما يقال في الغرفة. جعلتني أهني أهنئات كنت لا أتذكر حرفاً واحداً منها وأنا أتدرب على ههددة ابني بين ذراعي خلال أيامه الأولى. جعلتني أقرأ التعويذتين سراً لحمايته من أعين المرضات التي التهمت وجهه الجميل ذي الشعر الغزير والعيون

أنظر في مرآة الحمام لجسدي المشوه تماماً بينما ينام ابني في سرير خشبي وضعتة المرضية في الغرفة حتى أتمكن من إرضاعه حين يستيقظ. أحرق في تفاصيل جسدي المشوه وأوهق كل شيء بكاميرا الهاتف ثم أبعث الصور للعالم عبر الإنترنت. أؤدي كل العملية بسرعة فائقة قبل أن يعلو الصوت في داخلي وتلك الرائحة المتصقة بي منذ الولادة "يزي إحشم. عيب راهو". هنا أمامكم وأمامكم جسد عبثت به الأمومة. لا أريد أن أفصح النقاش معها مجدداً حول العيب والحرام ومعالي الشرف. هناك بوليس في دماغ أمي يسد منافذ المسموح ويقفل أبواب التفكير، ولي في رأسي مطرقة تضرب على الجدران لتحاول كسرها. هنا فعلاً مربوط الفرس. أعتقد أنني وجدت الإجابة دون فرح أو ارتياح أو غضب. لم يكن لدى خيار إلا الرحيل بعيداً.

في غرفة المستشفى، تذكرت بدقة كبيرة أقدم عناق لي مع أمي وهي تقول: "يا روحي، إيجا لماما" لتبهون عليّ أمراً يزعجني. لا أتذكر كم كان عمري وقتها ولكنني كنت صغيرة جداً. هذه الذكرى خطيرة للغاية فهي نادرة ولدي شكوك جدية بأن ذهني اصطنعها، إذ ليس لدي الكثير من ذكريات الطفولة، ويعود هذا حسب المختصين للعنف الذي تعرضت له منذ الصغر والذي يحو الذكريات والتفاصيل، المؤلم منها وحتى الجميل. انقضت ذكرى هذا العناق عليّ أو بالأحرى انقضت أنا عليها وأطبقت عليها بإحكام، مثلها لمحبس كأنما برياً نادراً مرّ سهواً وبالصدفة على منزل حسب أنه مهجور. اجتريتها كثيراً وقبلت بها سواء كانت حقيقية أو من صنع خيالي. ففي تلك الغرفة البعيدة وأنا بصدد التعرف على أمومي الفعلية، كنت بحاجة

لمتن قروي يساعدي على الصمود، متن يعطيني شرعية الأمهات
ويبعدي تمامًا عن شبهة النعمة أو الغضب أو الجنون بالوراثة.
نعم لي أم كانت تحنو عليّ وتقبلني وتحاول طمأنة خوفي،
وسأفعل مثلها أو أكثر منها. عناق أمي موجود في راثتي وبين
خصلات شعري وفي تفاصيل وجهي. أستطيع أن أريه لأي
مختص يأتي لزيارتي في الغرفة. أنا لست وحيدة هنا، لدي
أهل يمكنني الاتصال بهم في كل وقت. وأنا أم طبيعية للغاية،
تمتعت بالحب والحنان وأستطيع بكل عفوية أن أعطيها لابني
كلما طلب مني ذلك.

كيف مرت السنوات وانتهى بي المطاف بالتخلص من
انتمائي ومن حاجتي لحنو الأمومة عليّ؟ متى أغلقت الباب عن
الأحضان والقبل وكلبات الحب؟ لم يبق في قلبي، منذ سنين،
سوي القسوة ورغبتي المتواصلة في إقناع العالم وأولهم أنا بأنني
حرة تمامًا من الأحاسيس وبأن كرامتي أهم بالنسبة لي من
كل القبل والأحضان. كيف لي أن أعانق أمي وهي تعانق في
الآن ذاته جلادي؟ كيف لي أن أسامح وأن أنسي هياها في
الوقت الذي كان من المفروض فيه أن تمحي جسدي الصغير
من الانتهاكات والعنف؟ وكيف لي أن أنسى أنها اختارت
العنف وقبلت به بقلب ضعيف وفم أخرس طيلة سنوات. لو لم
أهرب بجلدي لكنت مثلها تمامًا، ولكنها أمي وأنا الآن أم. هي
أمي وأنا أشبهها في الحركات وفي الصوت وفي الرائحة. أنا بنت
زينب مهما تصنعت قول "دانكيشون" و"نانكيو" ومهما ترددت
على قاعات اليوغا بالمعظم. هكذا كانت الأفكار بمدافع في رأسي
لتشوه ذكرى العناق القديم، عناق حلو وطفولي وخالٍ من كل
اللوم والعتاب والغضب، غضب بنت على أم جبانة ومتواطئة
وعتاب أم لابنة هاربة وغاضبة.

في تلك الغرفة البيضاء، كانت مرارة الخسارة عالقة في حلقي. نحن النساء لن ننجو أبداً وسنظل تعيسات كأمهات وبنات، سواء ساحنا أو عاقبنا وسواء حاربنا أو استسلمنا. نعيد التاريخ وكأن الذاكرة لا تعيننا. من كان ليتصور أنني سأثبت بالأمومة بعد كل السنين التي عشتها كطفلة مشردة تحت سقف بيت يعجُّ بالظلم والقهر والحزن. لا أحد. هناك شيء ما على الأرجح جعلني مقتنعة تماماً بأنني سأكون أمًا جيدة. ربما هي محاولات أمي وتعلقها بنا عندما كنا صغاراً قبل أن تنطفئ تماماً وتختفي وراء سحب الاكتئاب واليأس. لم يعترف أحد باكتئاب أمي برغم كل العوارض التي واصلت العيش معها طيلة سنوات. لم أفهم اكتئابها إلا حين بدأت بالقراءة حول الأمومة الغائبة، وهي الأمومة التي تكون فيها الأم حاضرة جسدياً فقط مع أبنائها، تؤدي بواجباتها ومنها الرعاية النفسية دون أن تلمس روح أبنائها أو أن تفهم ما يدور برؤوسهم وقلوبهم. تعاني العديد من الأمهات المكتئبات من هذا العجز اللامرئي عن الإحساس والذي يقطع روابط الحب والتضامن بينهن وبين أطفالهن مما يعرضهن لاضطرابات نفسية عديدة. هذا العجز عن الحضور ذهنياً وعاطفياً هو واحد من نتائج العنف المسلط على النساء. كيف نسيت أنني معنية بهذا التاريخ؟ مَحِيَتِ الذاكرة مني يوم عرفت أنني حامل. خُيِّلَ لي أنني جديرة بالإعجاب بالرغم من عاهاتي واضطراباتي أنا وأمي ونساء عائلتي، وكأنني أردت إعادة التاريخ في ديكور أفضل وبلغة أخرى، أو أردت أن أصبح نهاية مختلفة أكون فيها إنسانة وأما خارقة صُنِعَت من نار وليس من رحم الواقع وتراكمات التروما الجينية والعائلية.

مرت سنة ونصف على ولادتي لسامي. عدلت عن كل

الوعد وبدأت بقبول الواقع. أساعد ابني على تعود غيابي وأحضر له الفطور قبل أن يذهب إلى الحضنة ليقضي اليوم هناك بعيداً مع أطفال آخرين وأمهات بالنيابة. كل شيء مناسب لكي أذهب عن المنزل: العمل، مساندة المهاجرين والمهاجرات، الاجتماعات السياسية، وقفات التضامن مع مساجين الرأي، المدرّسة النسوية لنا بن مهني، اجتماعات أخرى، حملات التبرع ومساندة المناطق المنكوبة، فقدان الأصدقاء ومواساة الآخرين، توديع الأصدقاء المجرين على الهجرة، الإبادة العرقية في غزة، الموت في الصحراء، الموت في عرض البحر، إلخ. كل شيء يحفزني على الهروب. لا أدري إن كنت بالفعل هاربة منه ولكنني حتماً غائبة عنه في أغلب الأوقات. يذكرني زوجي بواجباتي، وتغضب حماي عندما تأتي لزيارتي في تونس، ويعود ابني أكثر من اللازم على حضن مربيته مروى وقبلاتها. يعاتبني زوجي على تقصيري فأنا أعمل حتى في عطلة الأسبوع، ويطلبني بأوقات فراغ أفضيها معه ومع العائلة كما يحلو له أن يسمينا، أنا وهو وسامي وكلبتانا طوكيو وبروكلين. هذه العائلة التي انتظرتها منذ الصغر لتعوض لي الدفء الذي غاب وترك أطرافي تتحمد طيلة عمره بأكله. أقطع العهد على نفسي في كل مرة: أنا قادمة، انتظروني ولا تواصلوا السير من دوني، سأكون هنا بجانبكم مدى الحياة، أعتني بكل واحد فيكم كما حلت بهذا منذ الأزل. ولكنني سرعان ما أسيح وأبخر حول المآسي والتهديدات والضرب والواجبات الوطنية والإنسانية. أبخر كل صباح وفي المساء أيضاً ولا أشعر بالذنب على الإطلاق. أنا أم تنسى تماماً عائلتها حين تخرج من المنزل ولا تفكر بشراء الحلوى في طريق العودة إليه، أنا أم تفكر كامل اليوم في أسئلة أخرى تتجاوز الغياب والواجب

أخاف أن أخسر نفسي. تلك الأنا التي عهدتها، تجول في كل الشوارع وتمدد ما استطاعت بأهوال الناس ومصائبهم والظلم المسلط والمركب في كل أرجاء المدينة وعلى الحدود وحتى على بعد مئات الكيلومترات. أخاف أن أصبح أمًا لولد واحد صغير، تعتقد أنها تستطيع حمايته ما دام إيجار البيت مدفوعاً وله مكان نظيف للعب والأكل والنوم. أخاف أن أنسى ما كتب لي في الدفتر: أخرج للشارع كل ما سنحت لنا الفرصة وأصرخ: "لا خوف، لا رعب، الشارع ملك الشعب"، ولكننا خائفون وخائفات. جميعنا دون استثناء يقتلنا الخوف من المستقبل، يقتلنا الخوف من عجزنا على تغيير الأشياء ومن القضاء على الغول الكبير الذي يهددنا ويهدد مستقبل أبنائنا. أخاف أن أنسى نفسي وأن تلتهمني الأمومة بحلاوتها وسهولة تحقيقها: لعب وأكل لذيذ وصوت ابني العذب وهو يغني ويحاول تقليد الأصوات والكلمات التي يسمعها حوله. أخاف من أن أضيع الطريق التي تعودت عليها: حاربي بكل ما أوتيت من قوة. أنا أم لا تجرد إلى الآن معنى للحرب داخل أسوار الأمومة التقليدية فتهرب منها رغم احتياجها لها.

من المرجح أن كل ما أقوله لنفسي هنا هو كذب في كذب، وأن الأمر لا يتجاوز كوني أمًا مكتئبة بالوراثة أو بفعل الماضي المثقل بالجروح والندوب. من الممكن فعلاً أن هروبي من ابني هو مواصلة لتصدير الآمي في عناوين نضالية كبرى مثل الحرية والمقاومة والعدالة الاجتماعية والنسوية. أنا أم غائبة بالحضور، تعاقب فلا تعطي دفئاً وتلامس فلا تقع يديها على شيء إلا السراب. أنا أم ستحاول في البداية وستندر حياتها لعائلتها قبل أن تهأس وتختفي للأبد، تمامًا كما حاولت أمي النجاة قبل أن

في داخل رأسي صوتي الحالي ذو اللهجات المتعددة، يعيد على مسمعي "المهم أن لديك إجابة راقية ورومانسية تعطئها لسامي عندما يكبر". أذكر البكاء والغضب والحقد عندما كانت أمي تقول لي: "بقيت من أجلكم، من أجل أن تكبروا معي، وداخل عائلة محترمة فيها الأم والأب والإخوة. بقيت من أجل الأمان وحق لا تصيبكم المشاشة والوصم". ليها هربت وأخذتني معها أو حتى تركتني ولكن بقليل من الكرامة، ليها هربت فعلياً ولم تبقى بيننا جسداً بارداً ينهشه العنف تحت أعيننا حتى أصابنا العمى والضم والاحتقار لها ولنا جميعاً. لم تجرؤ أمي على الهروب ولكنني وجدت الإجابة. سأقول لسامي إن أمه هربت لتحارب في ساحات أوسع، هي الآن تحارب أشباحاً قديمة وجديدة سيسمع عنها عندما يكبر وسيفهم أنها تقتل الأطفال والأمهات وتلقي بهم بعيداً في وديان النسيان ورومانسية المقاومة والشهادة، سيرف وقتها أن البقاء رغم الألم هو فشل ذريع واستسلام، وأن الهروب بما تبقى فينا من نفس هو عين الحكمة والشجاعة. سيرف أن تضحية الأمهات ضيفة ومتصنعة ولكنها ضرورية للإبقاء على شعلة الغبن والغضب فينا.

أنا الأم.. أنا البداية والنهاية!

أمل إسماعيل

أي امرأة عاقلة قد تضع في حقيبة "عدة الولادة" كتباً ودقراً وقلماً؟ بالطبع، أنا!

"ستنسين الولادة وأوجاعها بمجرد ولادة الطفل"، "سيسكب الله في قلبك الحب حالمًا تحملين طفلك بين ذراعيك"، "ستتمنين العودة بالزمن لتحملني من جديد لتكرري التجربة"، إلخ..

انطلقت إلى مستشفى الولادة متسلحةً بعبارات أمي وقريباتي وجاراتي، وحقيبة حملت فيها كتابين ودقراً مذكراتي وقلماً وبعض حبات من التمر -لتسهيل الولادة- دون أي أوجاع تُذكر ما عدا رهبة نزول ماء الرحم أثناء انشغالي بإعداد طعام الغداء ربّما يعود زوجي وحماي من صلاة الجمعة.

مستشفى خاص، عناية فائقة، كيف لا وقد اخترت المستشفى بنفسني بعدما طبقت توصيات كتاب الأمومة الأجنبي بحذافيره، فزرت ثلاثة مستشفيات وفتحمت غرف الولادة فيها وطالعت السرد الذاتية لطبيباتها لأختار منهن من يوافق عليها حدسي. كل من رأيتي قال إن معي براحاً من الوقت، فأنا "بكرية"، ولن ألد إلا بعد مرور أربع وعشرين ساعة على الأقل. هذه حدود معرفتي عن الولادة أيضاً، ولهذا تربعت على سرير الولادة في غرفتي الفردية الجميلة، وفتحمت كتاب "الروح لابن القيم". لا أقل من كتاب بصيغة دينية أثناء الولادة، من يدري، فلعلني ألقى وجه ربّي، ولا يجوز أن ألقاه برواية لا تليق برهبة الموقف! حالتي تحت الملاحظة خوفاً من نزول كامل ماء الرحم ومعرض طفلي للحفاف والاختناق قبل بدء

ولادة طبيعية. أوجاعٌ خفيفة تروح ونجي... يا سلام! أهذه هي الولادة فعلاً؟ فلم كل أفلام الرعب التي تبثونها؟ يا باي عليكم! لازم البهارات والأكشن يعني؟ جاءتني ممرضة جميلة جداً، عرفت أنها ولادتي الأولى فأغرقتني حناناً ودلالاً، جاءت لي بغداء نظم - لم يشرح لي أحدٌ من قبل مساوئ أن تتناول الحامل طعاماً دسماً قبل الولادة، ولا يبدو أنها كانت تدرك ذلك هي الأخرى - فأكلتُ بشهية، إنها ولادةٌ نحس لنجوم. زارتني الطيبية، حالتي مستقرة، لكن ماء الرحم يقل، ولحُتاج لتسريع الطلق. وماله؟ نسرعه.. أضافت الطيبية محلول الطلق الصناعي للوريد، وتأكدت من تثبيت جهاز قياس الانقباضات على بطني، ثم غادرت. مرَّ الوقت، لم أستطع التركيز مع ابن القيم وأرواحه.. أغلقت الكتاب وطاقف روعي في عالمٍ من الأوجاع مردُّها الانقباضات الآخذة بالازدياد.. بطني تمحَّول إلى ملعب هوكي.. يتقاذفون كراتٍ داخله تكاد تمزق جدرانه. عادت الطيبية، الانقباضات أقل من المطلوب، سنزید الجرعة. زادت الجرعة، ثم غادرت. دارت رأسي، لا أعرف سقف الألم المطلوب، كنتُ أراقب الشاشة فأرى التسجيل تحت المعدل الذي قالت عليه الطيبية، فأصبر نفسي، استحملي، يفترض أن يزيد الألم عن هذا المعدل، انتي خيخه؟ لازم تستحملي أكثر.. وبلعت الألم واستحملت. صرتُ أرى حفلة ديسكو حولي من الألوان والأصوات، لم أصرخ، ولم أشتم، كنتُ أكتفي بآهات متقطعة بسيطة.. وهكذا صار من حولي يعتبرونني أفضل حالةٍ مرَّت عليهم، هادئة ومطمئنة للإرشادات. الألم.. هل للألم سقف أماء الولادة؟ ما هو سقفه؟ كيف يبدو ألم الولادة النهائي؟ متى سألد أصلاً؟ أعتقد الآن أن إتاحة الكتب الصوتية أماء الولادة كان سيخفف

عليّ التفكير في ألم الولادة، لكنها لم تكن شائعة حينها. معلى، فكرة مجنونة أخرى، استحملوني! من قال إننا ننسى آلام الولادة؟ أي مجنونة نطقت بذلك! أكتبُ عن تجربتي وأعيشها مرةً أخرى في دماغي وأشعر بجسدي يقبض.. أوووف!

جاءت المرضية لتؤكد من الانقباضات على الجهاز. الوقت صار جراً، والساعة البيضاء ذات الإطار الأبيض على الجدار أمامي.. الثواني أطول من المتوقع. الطبيبة غادرت إلى بيتها، قالت إن الولادة لن تتم قبل الظهر حسبما ترى. قلت إنني في حاجة للحمام. تركوني أذهب للحمام.. في الواقع كنتُ ألد، ولكني أجهل كيف تكون الولادة! عندما أمسكت بيد المرضية كدتُ أقطعها. غرزتُ أظفري فيها أثناء الطلق متألمة.. صرخت المرضية صرخةً أعلى من كل آهاتي التي أطلقتها منذ بدأ الطلق، فهرع إليها زوجي، هو طيب واستوعب ما يحصل، طلب منهم أن يعيدوني للسريـر. وعندما أعادوا ربط جهاز قياس الانقباضات رنّ رنيناً تحذيرياً، الانقباضات أعلى من المعدل.. جرعة الطلق الصناعي التي أخذتها عالية جداً.. أعلى من المطلوب، يبدو أن ربط الجهاز على بطني أول مرة لم يكن مضبوطاً! ها؟ ما الذي يحصل؟ أنا لا أرى.. أتذكر مشهد توم وجيري عندما يخبطه على دماغه بعضاً فيتربّح توم ثم يسقط لتدور العصافير حول رأسه ويدور مع دوامات ملونة.. أقسم إن هذا ما رأيته بالضبط، ثم فلاشات بيضاء تروح وتجي.. صراخ زوجي.. إنها تلد، أنتِ هاتي كذا، وأنتِ ابدئي الضغط على البطن، وأنتِ اصلي بالطبيبة المشرفة على الولادة لتأتي من بيتها حالاً. رأيتُ زوجي وقد ترك مهنة طبيب الجراحة ليصبح طبيب توليد، تولد من؟ أنا! قالت لي المرضية إن عليّ أن أتمنّس أنفاساً متقطّعة كاللهات بالتناهم مع الانقباضات!

ها؟ أي تنفس وأي لهاث؟ حربي باليزا كنت مرهقةً تمامًا..
بالأحرى شبه مغمى عليّ، منهكةً من الجرعة الأعلى من
المعدل للطلق الصناعي. ابنتي في رحمي بخفض نبضها.. هي
أيضًا أتعبتها التقلّصات الشديدة. خطر.. سمعتُ من يصبح إن
الحالة خطيرة. جاؤوا بجهاز شفط.. سيشفطون رأس الطفلة
ليخرجوها، إنها لا تتعاون معهم. انكسر جهاز الشفط الأول،
لجاؤوا بجهاز آخر.. صبوها.. صبوها.. لكنني لم أسمع بكاء طفلةٍ
حديثة الولادة كما في الأفلام. لا شيء!

تهبط قصيدة سيلفيا بلاث "ولادة الموت" كتر فيلم منتهٍ
بالأبيض والأسود:

أستيقظُ فأجدُ
جسدي ساحة معركة
شقّ فيها الطفلُ رحمي
إلى بحرٍ أحمر
أشعر بالبرودة تزحفُ عبر أطرافني
تظلني..

أعلمُ أنني ميتةٌ
وذاك الطفلُ هو الموت.
ممددةٌ ههنا، فارغةٌ
قشرةٌ من لحمٍ وعظمٍ
صدفةٌ كانت يومًا ملأى بي
رحل الطفل

سلبه الموت
تاركًا إياي وحدي
أتعفن وأتحلل
أنا شبحُ
ظلِّ نفسي السابقة
صدفةٌ كانت يوماً ملأى بي

أنا لا شيء
فراغٌ، عدمٌ
لا وجود
أنا الموت
أم كل شيء
واهبة الحياة وآخذتها
أنا البداية والنهاية
ألفا وأوميغا
الدائرة بلا نهاية
أنا ولادة الموت
وموت الولادة
أنا دورة الحياة
العجلة التي تدور إلى أبد الأبد
أنا اللغز العظيم

أنا الموت، وأنا الحياة. لا موسيقى. أسدل الستار، لم يصفق أحد. في الحقيقة، لم أبال، مستنزفةً وشبه ميتة. انتهت المعركة المقامة داخل رحمي، آثار الرماح ما زالت تخزني، فالانقباضات لم تهدأ بعد. لكنني تحولت إلى صدف فارغة أخيراً. أين الطفلة؟ لم أسأل عنها. سؤالي الوحيد كان لماذا لا تبكي كما يبكي الأطفال في كل الأفلام والمسلسلات ساعة ولادتهم؟ مر وقت عاد فيه زوجي الذي لم أنتبه لمغادرته غرفة الولادة أصلاً. لا، لم أقبل أن تحضر أُمِّي ولادتي، رفضت أن يلفوها إلا في ساعات الطلق الأخيرة لأنني لا أريدها أن يمألم لأُمِّي، قلت لزوجي: هي ناقصة! يكفي غياب إخوتي عنها وتشتتنا في أصقاع الأرض، أجيها عشان تبكي هنا كان! عاد زوجي حاملاً ابنتي "جنى"، أول ما رأيت منها أصابعها الطويلة خارج اللفة، ثم وجهها الذي يعدُّ نسخةً عالية الدقة من وجه حماتي وعائلة زوجي. جالت في خاطري فكرة: كل هذا التعب، وفي الأخير تشبهه هوا إحنا والله غلابة! مجرد أصداف تحمل لآلئ ما يلبث آخرون أن يخطفوها منّا. مدّها إليّ، أرادني أن أحملها، قلت له لا أريد.. خذها بعيداً.. خذها.. أنا منهكة. بالكاد لمستها، لمسة واجب لا لمسة حب. الحب الذي قيل لي إنه سيُصبُّ في قلبي صباحاً جاء من صنوبر صديئ. ولا قطرة ولا شيء.. رأيتها فرأيت الألم الذي لا سقف له، رأيتها وقلت: خلاص، خلصت! الحب مصيره يهي بعدين. أنا أصبحت أُمًّا،

والأم بلا خيارات. الحب ينزل في السستم. لم أحرف أنها كادت أن تموت إلا لاحقاً، أخفى زوجي عني حالة الرعب التي عاشها بعدما صبها دون أي إشارات حياة. كانت شبه مغنى عليها، شربت ماءً كثيراً، ونهضات قلبها ضعيفة إثر التقلصات التي تجاوزت المعدل. قلت حينها: لهذا لم يكن في خاطرها ما تبكي لأجله!

نقلوني إلى غرفة أستريح فيها، عرضت عليّ المرضة عرضاً ذهبياً: هل آخذ الرضاعة إلى غرفة الأطفال حديثي الولادة لتنامي قريرة العين؟ يمكنك رؤيتها عبر التلفزيون فهو كاميرا مباشرة على غرفة المواليد. رقم سرير طفلتك هو كذا. أو مات برأسي أن موافقة، من الغيبة التي ترفض فرصة ذهبية لتنام أخيراً دون واع وويغ؟ (صوت بكاء الأطفال) نمت أخيراً نوماً عميقاً. استيقظت مرتاحة بلا تأنيب ضمير بالمرة، كتبتُ عن المعركة. كل معاركها ذاكرة مكتوبة. لعل ابنتي ستقرأ يوماً ما كتبتُ، ولعلني سأحرق كل ذلك فلا يقرأ أحد. تفرغ ما حصل كان همي الوحيد، أشبه بفراشة تنسلخ عن شرنقتها، مرّة تلو أخرى. نسيت مسألة إرضاع ابنتي، والمستشفى تكفلت بإرضاعها لأنعم بنوم عميق وراحة بعد الاستيقاظ. لم تكن مسألة الرضاعة الطبيعية إجبارية حينها. ولم أستعجل تجربة أخرى، بالكاد نجوت! لكنني في هذا عانيت الأمرين لأن ابنتي رفضت الرضاعة من صدري بعدما جرّبت رضاعات الأطفال في غرفة المواليد، وتحولت لأجلها إلى مزرعة أبقار العين، أصعب لها صباح مساء لتشرب حليباً مني يقبها الأمراض. ستة شهور وأنا بقرة حلب كرمي لعينها، أخزن أكياس الحليب كما يخزن الجنود مؤونة الحرب، وأحملها معي في حقيبة تبريد مخصصة كمن يحمل آربي جي جاهز لنسف أي أحلام بحياة

عدتُ للبيت أحمل طفلي، قال زوجي إن كل شيء انتهى، وسنعود لحياتنا الطبيعية. ولدتِ وانتهى الأمر، يا لله على الحياة! هو نفسه لم يستوعب ماذا يعني أن تلد امرأة وتحتاج إلى راحة "نفسية" بعد الولادة. كان يجرب "مسؤولته" مثلي. يجربها في حدود مناغاة الطفلة وكررتها وجعلها أكثر الأطفال أناقة وجمالاً في كل محضر، تاركاً كل تلك التفاصيل غير المفهومة رهناً لواجب الأمومة وقدسيتها ومسؤوليتها، تجربها "أم" لأول مرة، أمام مجتمع يسلب عدسته المكبرة على "قشطة" الطفلة بعد شرب الحليب، وابتفاخ البامبرز "أكثر من اللازم".

رفضتُ أن أستريح للأربعين، ورفضت أن تساعدني أُمي لأكثر من أسبوع. أجبرتها على مغادرة بيتي لأني مسؤولة عن نفسي وزوجي وابنتي، وعادي يعني.. البهايم بتخلف، وبكامل دورة حياتها.. وإحنا مش مختلفين عنهم في هذه المهمة! عدتُ إلى عملي بعد شهرِي إجازة، وسلّمت ابنتي إلى دار حضّانة نهارية مع علب الحليب الطبيعي التي أجهزها لها، لأعود لتسلّمها عصرًا، وأستكمل دورة الحياة حتى ما بعد منتصف الليل، ثم الفجر، وهكذا.. لا حاجة لمن يساعدني، لا حاجة لـ"حاجة" من أي كائن.. مهما كانت صلته بي.

"أنا البداية والنهاية"

ألفا وأوميغا،

الدائرة بلا نهاية"

كل شيء بدأ لي من منطلق مسؤولية لا حب.. أحببت ابنتي الأولى -أكيد- لكنه كان حبّ مسؤولية، لا حباً جارفاً كالذي سمعتُ عنه من الأخباريات ورأيتُه في الأفلام

والمسلسلات. حبي لها هو حب نداء الواجب، أنا أمك، يعني أوفر لك أفضل الممكن، وأفضل الممكن هذا كان كنفق بلا ضوء في آخره.. أمشي وأمشي وأمشي.. لا نهاية له أبداً.

حب الأمهات الذي بنيتة أرهقني، كلّفني كتابة ما بعد الولادة التي لم أعرف أنّي مصابة بها إلا بعدما قرأت كتاب "حليب أسود" لأليف شافاق، ثم "عن الأمومة وأشباهها" لإيمان مرسال، متوقفةً عن الكتابة والتأليف وحضور الأمسيات والندوات الأدبية ستة أعوام.. كنتُ حينها أماً لثلاث صغيرات جميلات، مُحمّلةً بثلاث تجارب ولادة-ثلاث خبطات متتالية على الدماغ- كل تجربة منها جعلتني أبكي لمجرد معرفتي بأبي حامل وسأكرّر مسلسل الولادة إياه لا.. لم أشتق إلى تجربة الحمل ووحامها البائس، ولا إلى الولادة ببواباتها المفتحة على جهنم، ولا إلى الإرضاع ومشاقه ليلاً ونهاراً.. لم أشتق أبداً إلى ذلك الإحساس الذي حشوا به أفواهنا نحن النساء لنجتره كالبهايم في كلّ محفل، إننا مخلوقات تحسّ ونألم، ولا عاقل يرى في الألم الكابوسي حلماً سعيداً.

ولكنني سقطتُ في الفخ.. وانسكب في قلبي حب طفلي الأخيرة، تلك التي جاءت على مهل.. دون حفلة طلقٍ صناعي، ولا جهاز شفط.. باستعداداتٍ لمركبةٍ بتُّ أعرفُ ميدانها، متسلّحةً بصبرٍ من نوعٍ آخر لم يعرفه أيوب، وإلى جانبي أمي هذه المرة، تبتسم وهي تراني لا أنألم، وكلما قلت آه خفيفة، قالت باتّزان: قولي يا رب.

جاءت ابنتي لين، لينةً هينةً.. وأعجبني كيف بكت لثانيتين، بكاءً من يتّبع السيناريو المألوف ويبري العتب، ثم ابتسمت، ونامت في حضني بلزوجتها ورائحتها التي تحمل طعم الحياة

شرين أبو النجا

أستاذة الأدب الإنجليزي والمقارن بجامعة القاهرة وهي أيضا
ناقدة أدبية نسوية. لها كتب بالعربية والانجليزية ومقالات في
دوريات علمية محكمة. ولأنها على وعي بموقعها في العالم الثالث
فهي تنبئ منظورا نسويا اشتراكيا لقراءة حياة الأدب والفن في
أسوأ لحظة نوليبرالية.

منى إبراهيم

أستاذة بقسم اللغة الإنجليزية، كلية الآداب، جامعة
القاهرة. لها أبحاث منشورة في مجالات الدراسات الأمريكية
والدراسات المقارنة والكتابة النسوية ودراسات الترجمة وأدب
الرحلات ودراسات ما بعد الكولونيالية والأدب الأفريقي.
شغلت منصب رئيسة تحرير مجلة "طيبة" التي تصدرها
مؤسسة "المرأة الجديدة" في الفترة ما بين 2002- 2018،
أصدرت خلالها أعدادا حول موضوعات متعددة منها: النساء
والتشريعات، النساء والمقاومة، النساء والتعليم، النساء والعلوم،
وغيرها. عضوة مؤسسة لمجموعة "أنا الحكاية" للحكي النسوي.
شاركت في تحرير مجموعة قصص قصيرة تحت عنوان "أنا
الحكاية" من كتابات عضوات وأعضاء المجموعة.

هالة كمال

باحثة نسوية وأستاذة الأدب الإنجليزي ودراسات الجندر
في كلية الآداب، جامعة القاهرة، وعضوة مؤسسة في المرأة
والذاكرة. تركز اهتماماتها البحثية وكتابات المنشورة باللغتين
العربية والإنجليزية على الأدب والنقد الأدبي النسوي، ونظرية
السيرة الذاتية وكتابة الحياة، وتاريخ الحركة النسوية المصرية،
ودراسات الترجمة. كما تقوم بتدريس مقررات جامعية في

الأدب الروائي والنقد الأدبي والسيرة الذاتية والترجمة والجندر،
ومناهج البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

نولة درويش

لها تاريخ طويل من العطاء من أجل إعلاء شأن الفكر
النسوي المنحاز إلى الفئات المهمشة في مصر فيما بين أعداد
واسعة من النساء والرجال قناعة منها إن التغيير الثقافي - وهو
الأهم من وجهة نظرها - يتطلب أداء داعم ومتضامن من
جميع فئات الأمة، أي: من الجنسين، والانتماءات العرقية
والجغرافية والطبقية والعمرية والدينية المختلفة، والمستويات
التعليمية المتفاوتة حتى تحدث الطفرة الحقيقية على المستوى
الاجتماعي. كما دافعت دوما عن حق الجميع، والنساء بصفة
خاصة، في اختيار مصائر حياتهن، وسلامة أجسادهن، وذلك
على مستوى جميع الأمور الحياتية. وقد انتمت من جانبها في
اتجاهات مهنية متنوعة، كما قادت الحياة أحيانا إلى العيش في
بلدان عديدة، ولكن بقيت بوصلتها دائما تتجه نحو العودة إلى
الوطن.

علياء طلعت

ناقدة وباحثة أكاديمية في مجالي السينما والجندر، حاصلة على
دبلوم النقد الفني ودبلوم النقد السينمائي، وعضوة لجنة مشاهدة
مهرجان القاهرة السينمائي الدولي ومهرجان أسوان لأفلام
المرأة، ولجنة تحكيم النقاد العرب، تكتب في عدة مطبوعات
ورقية ومنصات إلكترونية منها مجلة الفيلم، ومجلة فنون ومجلة
أبيض وأسود، وموقع المنصة ورصيف 22.

ريم بن رجب

صحافية نسوية، محررة وباحثة في العلوم السياسية من تونس.

درست بكلية الصحافة ثم درست ماجستير بحث في العلوم السياسية بكلية الحقوق والعلوم السياسية بعونس وأعدت رسالة الماجستير حول العمل الجنسي في تونس ثم بدأت في العمل على رسالة الدكتوراه حول المؤسسات العقابية ولكنني هجرت الأكاديمية بعد خمس سنوات بسبب جهودها وبيروقراطيتها. أعمل كصحافية ومحررة منذ 13 سنة ومنذ بداياتي كنت مهتمة بالعمل على الهامش والتاريخ غير الرسمي بعدسة نسوية. عضوة مؤسسة في حركة فلقطنا وهي حركة نسوية كويرية راديكالية.

نفيسة الصباغ

صحفية ومترجمة وناشطة نسوية، عملت بالصحافة لأكثر من 15 سنة. عن الخمسة عشر عاما، مؤسسة موقع "مصريات".

مي عامر

أم وباحثة نسوية حاصلة على الدكتوراه في مجال الدراسات الثقافية عن تحليل جندري للشهد الغنائي المعاصر في مصر عام 2023، أنهت الماجستير عام 2015 والتي اهتمت فيه برصد وتحليل أغاني المهرجانات. تعمل مي في مجال التنمية وحقوق النساء منذ العام 2009، ولها عدة أبحاث ومقالات نسوية.

هنده الشناوي

ناشطة نسوية تونسية، صحافية وباحثة في علم الاجتماع. بعد سنوات من العمل والنضال صلب الحركات الاجتماعية والسياسية في تونس الثورة، أسست المدرسة النسوية لنا بن مهي سنة 2021 والتي تقوم كل سنة بدورات تدرب ونقاش حول النظريات النسوية وقضايا حقوق الإنسان وتخلق فضاءات للإبداع الفني والأدبي. قضت هنده الشناوي،

الخمسة عشرة سنة الفارطة بين الكتابة والتنظيم حول الحركات
والحملات من أجل العدالة الاجتماعية والحريات في تونس
والمنطقة العربية والإفريقية. وهي الآن تعمل مع جمعية لنا بن
مهني وترأس تنظيم مهرجان 27/20 المناضل في تونس.

أمل إسماعيل

شاعرة ومترجمة فلسطينية مقيمة في الإمارات. صدر لها 17
عملاً أدبياً بين الشعر والقصة والترجمة وإدارة المعرفة والابتكار.
فازت بجائزة توليولا الإيطالية فئة الشعر غير الإيطالي عام
2020. وجائزة أوائل الإمارات عن مبادرة رأس الخيمة تقرأ
عام 2016. عضو اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، والاتحاد
الدولي للغة العربية، ونادي جامعي الملاحظات الأمريكي. تعمل
في التدقيق اللغوي والتحرير الأدبي، وتدرّب في مجالات الكتابة
الإبداعية، والإبداع والابتكار، والتطوير والسعادة المؤسسية.

T

t.me/tea_sugar

Notes

[1I]

مفردة لفضفاضة تعني كل شيء ولا تعني شيء لكن عقد التواطؤ يعني
وبين القراء يجعلنا نفهم المقصود.

[2II]

بالرغم من عدم دقة توظيف صيغة المفرد- إذ هناك ثقافات- إلا أن
المشترك بين الثقافات العربية فيما يتعلق بالنساء عامة والأمومة بشكل
خاص يضفي شرعية ومنطق على التعميم والاختزال.

[3II]

نصر حامد أبو زيد، المرأة في خطاب الأزمة، القاهرة: دار نصوص،
1994

[4II]

الفريق محمد سعد الدين شريف كان يشغل منصب قائد السرب
الملكي وكبير الياوران في عهدي جمال عبد الناصر والسادات، وتولى
منصب المستشار الأول للرئيس في الطيران ورئيساً للكشافة، وكان
يمثل دائرة صهرجت الكبرى لست دورات متتالية بمجلس الشعب
عن مقعد الفئات، وتولى رئاسة مجلس الشعب فور ائتيال الدكتور
رفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب الأسبق بائباره الأكبر سنأ بين
النواب. توفي سعد الدين في 1997 وشُيع جثمانه في جنازة رسمية
وعسكرية حضرها كبار رجال الدولة. (المصدر هو ويكيبيديا التي لا
يعترف بها كمصدر علمي لكنني أردت أن أوضح بشكل عام خلفية
صاحب الفكرة).

[5II]

أجرت علا المستكاوي هذا الحديث مع سعد الشريف في مجلة آخر
ساعة، وهو ما يشير إليه أبو زيد في الهوامش، لكنه لم يأخذ الائقباس
بشكل مباشر من الحوار لكن من كتاب الأئحت المسئلة أساس

المجتمع الفاضل لمحمود الجوهري الصادر عن دار الأنصار عام 1978 (ص 19-20). بمعنى آخر، تم توظيف هذا الخطاب لصالح إعلاء القيم الإسلامية.

[6I]]

الدكتور عبد المنعم النمر (1913-1991) عالم دين سني مصري من علماء الأزهر، ومفكر إسلامي. تولى وزارة الأوقاف المصرية، كما أنه كان عضواً في مجمع البحوث الإسلامية. كتب حول الثقافة والتاريخ في الإسلام، ودافع عن أصالة الثقافة الإسلامية في مقابل الغزو الفكري الغربي. تدرج الشيخ عبد المنعم النمر في عدد من المناصب العلمية والدينية، حيث تولى التدريس في المعاهد الأزهرية وكلية جامعة الأزهر، كما درس في الهند والكويت والإمارات وأصبح وكلاً للأزهر ووزيراً للأوقاف. واعتمد للإشراف على دورات تدريبية لإعداد الأئمة والوعاظ والدعاة في دول الخليج. ولم تشغله هذه المناصب والمهام العلمية والوعظية ثم السياسية (الوزارة) والنيابية، حيث ظل لعدة سنوات رئيساً للجنة الدينية بمجلس الشعب المصري عن العطاء العلمي الجاد في مختلف مجالات الثقافة الإسلامية، فقد ألف في أصول الإسلام من كتاب وسنة وألف في المذاهب والنظريات الواحدة من الثقافات الأخرى (أيضاً من ويكيبيديا).

[7I]]

من كتاب محمود الجوهري، الأخت المسئلة أساس المجتمع الفاضل. ص. 110-111

[8I]]

<http://www.makhzin.org/issues/feminisms/maternity-and-violence>

[9I]]

محمد سمير عبد السلام، التجدد، والاختلاف في تأويل بنية الأمومة الأولى، قراءة لكتاب كيف نتنم: عن الأمومة وأشباحها لإيمان مرسل- الكلية ع 151 نوفمبر 2019

[10]

حنين طارق، منشور، تجربة فضيحة: عن البتة وأصحابها وإيمان
مرسال، 11 يوليو 2019

<https://manshoor.com/life/>

[daughter-personal-experience-and-iman-mersal/](https://manshoor.com/life/daughter-personal-experience-and-iman-mersal/)

[11]

أروى الطويل، متراس، 6 يناير 2019 كيف تتشم في سبيل سرديّة
فضيحة

<https://metras.co/%D9%83%D9%8A%D9%81-%D8%AA%D9%84%D8%AA%D8%A6%D9%85-%D9%81%D9%8A-%D8%B3%D8%A8%D9%8A%D9%84-%D8%B3%D8%B1%D8%AF%D9%8A%D8%A9-%D8%B4%D8%AE%D8%B5%D9%8A%D8%A9/>

[12]

لمزيد من المعلومات حول تلك النقاط، انظر/ي. *Interdisciplinary Views on Abortion: Essays from Philosophical Sociological, Anthropological, Political, Health and ,Other*

Perspectives , 2009 Susan A. Martinelli-Fernandez, محرر

Lori Baker-Sperry and Heather McIlvaine-Newsad
North Carolina. McFarland & Company, Inc.,
Publishers.

حيث يقدم الكتاب مجموعة متميزة من الدراسات حول الإجهاض
من حقول معرفية مختلفة، من بينها الفلسفة وعلم الاجتماع والسياسة
والصحة والأدب أيضاً، ولكن الدراسة الوحيدة التي يتضمنها الكتاب
حول أعمال أدبية هي في الواقع دراسة اجتماعية أيضاً في المقام

الأول تناول نفس الجدل الذي يدور في المجتمع حول الإجهاض وحقوق النساء فيه في مقابل حقوق الجنين الذي يتم إجهاضه. من المفيد أيضاً هنا ذكر كتاب "حكايات الإجهاض" لغدير أحمد، "حكايات الإجهاض: النساء بين العائلة والقانون والطب" الصادر عن دار المرآة، 2023، للاطلاع على دراسات حالة لمجموعة من النساء اللاتي مررن بتلك التجربة المؤلمة من مجتمع وثقافة أخرى، وإن عمدت الكاتبة أيضاً إلى استخدام أسلوب أدبي رغم اعتباره دراسة أكاديمية في الأساس من منظور يفتي لتجمع بين أكثر من حقل معرفي كما يوضح من عنوان الكتاب.

[13I]

كل الترجمات الواردة في هذا المقال هي للكاتبة

Sylvia Plath, "Metaphors". <https://shenandoahliterary.org/blog/2012/01/metaphors-by-sylvia-plath>

[14I]

Leyla Josephine, "I Think She Was a She". <https://feministfindings.wordpress.com/2014/09/21/i-think-she-was-a-she/>

[15I]

Anne Sexton, "The Abortion". <https://www.poemhunter.com/poem/the-abortion-3/>

[16I]

Gwendolyn Brooks, "The Mother". <https://www.poetryfoundation.org/poems/43309/the-mother-56d2220767a02>

[17I]

في التلساني، دنها زاد، طبعة دار الشروق الأولى 2022، الطبعة

[18I]]

الرواية مي التلسالي: الكتابة بديل عن الطيب النفسي

<https://n9.cl/bmreb>

[19I]]

أستخدم صيغة حياتهم للجمع بين صيغتي التذكير والتأنيث المثلثة في كلتي حياتهن وحياتهم. وأسأستخدم نفس القاطعة عند كتابة مفردات تشير إلى التذكير والتأنيث معاً في صيغة الجمع، أي الجمع بين صيغة جمع المذكر السالم وجمع المؤنث السالم في صيغة واحدة تضم الجميع.

[20I]]

لطيفة الزيات، "الشيخوخة"، الشيخوخة وقصص أخرى، القاهرة: دار المستقبل العربي، 1986، ص 23-55.

[21I]]

صفحة لطيفة الزيات على موقع "جندرية": (<https://genderiyya.xyz/wiki>)

[22I]]

لطيفة الزيات، من صور المرأة في القصص والروايات العربية، القاهرة: دار الثقافة الجديدة، 1989.

[23I]]

على سهيل المثال، دراسة شيرين أبو النجا، "الأم/الابنة المتورطة: هوس الامتلاك"، وهي الفصل السابع من كتاب لها في الدراسات المقارنة قيد النشر.

[24I]]

الإشارة هنا إلى كتاب إيمان مرسال، كيف نلتئم: عن الأمومة

[25I]]

[https://www.mind.org.uk/information-support/
types-of-mental-health-problems/
postnatal-depression-and-perinatal-mental-health/
ptsd-and-birth-trauma/](https://www.mind.org.uk/information-support/types-of-mental-health-problems/postnatal-depression-and-perinatal-mental-health/ptsd-and-birth-trauma/)

[26I]]

<https://www.birthtraumaassociation.org.uk/>

[27I]]

إليف شافاق: حليب أسود، ترجمة أحمد العلي، دار مسكلياتي للنشر
والتوزيع، تونس، 2016 ص 384.

[28I]]

قصيدة ولادة الموت لسيلفيا بلاث، بترجمة أمل إسماعيل.